طه حسين

المعذّبون فى الأرض

دار المعارف بمصر

طه حسين

المعذبون في الأرض

اقرأ ١١٨
دار المعارف بمصر

اقرأ ١١٨ — سنة ١٩٥٥
سنة ١٩٦٥

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.ع.م.

مقدمة

إلى الذين يحرقهم الشوق إلى العدل ،
وإلى الذين يؤرقهم الخوف من العدل ،
إلى أولئك وهؤلاء جميعـا ،
أسوق هذا الحديث

* * *

إلى الذين يجدون ما لا ينفقون ،
وإلى الذين لا يجدون ما ينفقون ،
يساق هذا الحديث

لا أجد لتصوير الحياة فى مصر أثناء الأعوام الأخيرة من العهد الماضى أدق من هذين الإهدائين اللذين يقرؤهما كل من تناول هذا الكتاب ؛ فقد كان المصريون فى تلك الأعوام القريبة البعيدة فريقين ، أحدهما يصور الكثرة الكثيرة البائسة التى تتحرق شوقاً إلى العدل مصبحة وممسية وفيما بين ذلك من آناء الليل وأطراف النهار ، والآخر يصور القلة القليلة التى تشفق من العدل حين تستقبل ضوء النهار ، وتفزع من العدل حين تجنها ظلمة الليل ؛ وكان فريق الكثرة ذاك لا يجد ما ينفق فى رزق نفسه وفى رزق من يعول ، فيشقى بما يجد من الحرمان ، ويشقى أشد الشقاء وأعظمه نكراً بما يجد عياله من الحرمان؛ كانت عينه بصيرة إلى أبعد ما يبلغ البصر ؛ وكانت يده

قصيرة إلى أدنى ما يكون القصر ؛ كان يرى الطيبات بين يديه فتتوق إليها نفسه ، وتتوق إليها نفوس بنيه وبناته ؛ فإذا أراد أن يمد إليها يده أبت أن تمتد كأنما أصابها شلل ، أو كأنها شدت إلى سائر جسمه بأثقل الأغلال ؛ فكان يكظم غيظه ويصبر نفسه على مكروهها ، ويصبر أهله على البأساء والضراء ؛ وينتظر العدل الذى يبطئ عليه فيغلو فى الإبطاء .

وكان يرى الآفات المختلفة تصطلح على جسمه ونفسه ، وعلى أجسام عياله ونفوسهم ، ويهم أن يصلح مما تفسده تلك الآفات ، فيقصر به همه ، ويقعد به عزمه ، ويضطر إلى أن يسلم نفسه وأهله لهذه الآفات تعبث بهم كما تريد ، قد وطن نفسه على الجهل لأن أباه لم يستطع تعليمه ، وهم أن يخرج عياله من الجهل الذى اضطر هو إليه ، فلم يجد إلى ذلك سبيلا ، فرضى الجهل لبنيه كما رضيه لنفسه ، وانتظر العدل الذى يُتيح لبنيه من المعرفة ما لم يُتح له فى صباه ، ولكن العدل يبطئ عليه وعلى بنيه فيغلو فى الإبطاء .

وكان يرى البؤس له خليطاً بغيضاً ، يصحبه إذا سعى فى الأرض ، ويصحبه إذا راح إلى داره ، ويسكن معه ومع أسرته فى تلك الدار إن أتيحت له ولأسرته دار يأوون إليها ؛ فيصبر نفسه على هذا الخليط البغيض ، ويصبر أهله عليه ، واثقاً بأنه لن يستطيع منه فراراً ، لأنه لن يستطيع أن يتخذ

نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء؛ فينتظر العدل الذى سيخلصه ويخلص أهله من خليطه ذاك البغيض ، ولكن العدل يبطئ عليه فيغلو فى الإبطاء .

ولم يكن البؤس يرضى أن يصحب هذا الفريق إلا إذا تبعه أصحابه من الجوع والعرى والعلل والذل والهوان ، والكد الذى يضنى ولا يُفنى ، والهم الذى يسوء وينوء ؛ وكان الناس من ذلك الفريق يبغضون أولئك الضيف أشد البغض ، ويضيقون بهم أشد الضيق ، ولكنهم لا يجدون إلى الخلاص من ضيفهم الثقلاء سبيلا إلا أن يأتى العدل فيلقى بينهم وبين ضيفهم ستاراً ؛ ولكن العدل كان بطيئاً مسرفاً فى البطء ، كأنه كان يمشى فى القيد ، لا يكاد يخطو خطوات قصاراً حتى يجذبه من ورائه جاذب فيرده إلى مكانه الذى استقر فيه بعيداً كل البعد عن الناس الذين يحبهم ويحبونه ، ويشتاق إليهم ويشتاقون إليه . كذلك كان ذلك الفريق طامحاً إلى العدل ، يحرقه طموحه دون أن يُبلغه شيئاً ، وما أكثر ما مضت الأجيال وليس لها من العدل حظ إلا انتظارها له ، وتحرقها شوقاً إليه .

فأما الفريق الثانى ، فريق تلك القلة القليلة ، فقد كان يرى بؤس الفريق الأول وشقاءه وعناءه ، وخضوعه للمحن والخطوب ، وإذعانه للكوارث والنائبات ؛ فلا يحفل بما يرى ولا يلتفت إليه ؛ ولعله لم يكن يرى شيئاً ولا يحس شيئاً ؛ كان

مشغولا بيسره عن عسر الناس من حوله ، وكان مشغولا بترفه عن شظف الناس من حوله ، وكان مثقلا بالغنى فلا يعنيه أن يثقل الناس بالفقر . كان نظره قصيراً كأدنى ما يكون القصر ، وكانت يده طويلة كأبعد ما يكون الطول ؛ كان يشتهى فيبلغ ما يشتهى حتى سئم شهواته ، وكان يريد فيبلغ ما يريد حتى ملّ إرادته ، وكان قلبه قد قسا فهو كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما تتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ؛ وكان عقله قد حُجب عما حوله أو حجب عنه ما حوله ، فهو لا يرى ما كان يملأ البيئة التى يعيش فيها من النُّذر ، فإن رأى منها شيئاً أعرض ونأى بجانبه وأمعن فى الحمق والغرور ، فلم يفكر فيما كان ، ولم يفكر فيما يمكن أن يكون ، وإنما عاش للساعة التى هو فيها كأن كل يوم من أيامه قد اقتطع من الزمان اقتطاعاً فليس له أمس وليس له غد ، والبعد يشتد بينه وبين ذلك الفريق من البائسين المعذبين ، فهو لا يحسهم إلا أن يحتاج إليهم ، وهو إذا احتاج إليهم لم يرفق بهم ولم يعطف عليهم ، وإنما ينزل إليهم الأمر تنزيلا أن يشتقّوا له من شقائهم سعادة ، ومن عنائهم راحة ، ومن بؤسهم نعيما ؛ وكانت الحكومات تقوم على إرضاء هذا الفريق المترف طوعاً أو كرهاً ، وربما حاول بعضها أن يختلس شيئاً من الإصلاح اختلاساً

فنظر إلى هذا الفريق من المعذبين فى الأرض نظرة فيها شىء من إشفاق وهمّ أن يمسهم بجناح من رحمة ، ولكنه لا يكاد يفعل حتى تزلزل به الأرض ويحاول بينه وبين الحكم ، وتلقى عليه الدروس فى أثر الدروس لعله يفهم أن غاية الحكم إنما هى أن يزداد المترف ترفاً ويمعن البائس فى البؤس والشقاء .

فى بعض ذلك العهد نُشرت هذه الأحاديث متفرقة ، فلم تحفل بها الحكومة القائمة إذ ذاك ولم تلتفت إليها ، ولكنها جُمعت ذات يوم فى كتاب وأرادت أن تصل إلى أيدى القراء مجتمعة لتعظ المسرف وتعزى المحروم ، وهنالك حفلت بها تلك الحكومة والتفتت إليها ووقفت عندها وقفة لم تطل ، وإنما صدر فيها الأمر بأن يحال بين هذا الكتاب وبين الناس ، وبأن تؤخذ نسخة من المطبعة إلى حيث يصنع بها السلطان ما يشاء، يحرقها أو يخرقها أو يغرقها أو ما شاء الله من ألوان العبث ما دامت لا تصل إلى أيدى القراء !

وكذلك صودر هذا الكتاب فيما صودر من كتب أخرى كانت تريد أن تبصر المصريين بحقائق أمورهم ، وأن تعظ منهم الطغاة والبغاة ، وتعزى منهم البائسين واليائسين ؛ ونظرت مصر التى كانت ترى أنها ملجأ الحرية فى الشرق الأدنى ، وأنها قائدة الشعوب العربية إلى الكرامة والعزة والاستقلال ، وأنها آمنت من بغى الدولة التركية القديمة وطغيانها أحرار

سوريا ولبنان والعراق ؛ نظرت مصر هذه فإذا كتاب قد كتبه أحد أبنائها يحال بينه وبين المواطنين ، وإذا هو يسلك طريقه إلى لبنان فيطبع فيه وينشر ، ويذاع فى أقطار البلاد العربية ، ثم يعود إلى مصر فيدخلها خائفاً يترقب ويستخفى به قراؤه استخفاء ؛ ثم يعاد طبعه ونشره فى لبنان ، والقراء من المصريين يسمعون بذلك فينكرون فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجهروا بهذا النكير . . .

عادت مصر إذن إلى مثل ما كانت عليه فرنسا أثناء القرن السابع عشر ، حين كان بعض كتابها يفزون بكتبهم لينشروها فى هولندة مخافة البأس والبطش وطغيان الرقيب . وأحاول أن أفهم مصدر هذا الخوف الذى أغرى تلك الحكومة بهذا الكتاب فحرمت عليه الحياة فى مصر ، فلا أجد إلى فهمه سبيلا ؛ فليس فى الكتاب سياسة أو شىء يشبه السياسة ، وليس فى الكتاب تحريض على النظام الاجتماعى ينكره القانون ، وليس فيه إغراء بتلك المبادئ الهدامة كما كان يقال فى ذلك الوقت ، وليس من فصوله فصل إلا وقد نشر فى مجلة أو صحيفة سيارة فلم تنكره الحكومة ولم تضق به النيابة ولم يقدم كاتبه وناشره إلى القضاء .

وإذن فهو الخوف الذى يورط فى البغى ، وهو الذعر الذى يدفع إلى الطغيان ؛ وهو التنكيل بالكاتب من طريق

التنكيل بكتابه ، وهو الاستجابة للهوى والانقياد للشهوة والحكم فى الناس بالحب والبغض لا بالحق والعدل . ولست أعرف أشد حمقاً ولا أجهل جهلا ولا أغبى غباء من الذين يصدرون فى حكمهم عن الخوف والذعر ، وعن الشهوة والهوى ، وعن الحب والبغض ؛ فهم يورطون أنفسهم فى ألوان من السخف لا تكاد تنقضى ، يحسبون أن قدرتهم تبلغ كل شىء ، مع أنها قدرة إنسانية محدودة لها مدى لا تستطيع أن تتجاوزه ؛ فهى تصادر كتاباً فى مصر وتظن أنها حالت بينه وبين المصريين ؛ ثم لا تلبث أن تراه قد نشر فى لبنان وعاد إلى مصر فقرأه الناس فيها ، وانتقض عليها كل ما أبرمت ، وفسد عليها كل ما دبرت ، واستبق الناس إلى هذا الكتاب وتنافسوا فى الظفر به ؛ ولو قد خلّت الحكومة بينهم وبينه لكان منهم القارئ له والمعرض عنه ؛ ويحسبون أنهم يفهمون كل شىء ، وأن عقولهم تنفذ إلى ما لا تنفذ إليه عقول غيرهم من الناس ، وعقولهم مع ذلك عقول إنسانية تفهم من الأمر قليلا وتعيا عن فهم الكثير ، ولو قد فطنت عقولهم لكل ما كانت الصحف تنشر من الفصول ، ولكل ما كانت المطابع تذيع من الكتب ، لعطلوا الصحف كلها تعطيلا ، ولأغلقوا المطابع كلها إغلاقاً . وأى شىء أدل على ذلك من هذا الأدب الجديد الذى أنشأته حكومات الطغيان إنشاء حين اضطرت الكتاب إلى العدول

عن الصراحة إلى فنون من التعريض والتلميح ، ومن الإشارة والرمز ، حتى استقل هذا الأدب بنفسه وتنافس القراء فيه تنافساً شديداً ، وجعلوا يقرأون ويؤولون ، ويناقش بعضهم بعضاً فى التأويل والتحليل ، واستخراج المعانى الواضحة من الإشارات الغامضة . وانظر إلى ما نشر صاحب هذا الكتاب من «جنة الشوك» و «جنة الحيوان» و «مرآة الضمير الحديث» و «أحلام شهر زاد» ؛ فلن ترى فيها إلا رمزاً لمظاهر كنا نبغضها ولا نستطيع أن نتحدث عنها فى صراحة أثناء تلك الأيام السود ؛ فكنا نؤثر الغموض على الوضوح ، والرمز والإلغاز على التصريح ، والإشارة والتلميح على تسمية الأشياء بأسمائها ؛ وكانت حكومات ذلك العهد ورقابتها تقرأ فلا تفهم ، فتخلى بين الكتاب وما يكتبون ، وتخلى بين القراء وما يذاع فيهم من ذلك الأدب الجديد .

وكذلك قهر الأدب بغى البغاة ، وأفلت من رقابة الرقباء ، وسجل على الظالمين ظلمهم ، وعلى المفسدين إفسادهم ، وأنشأ بينه وبين القراء لغة جديدة يفهمها الأدباء وقراؤهم ، وفناً جديداً يذوقه القراء ويحبونه ويؤثرون على فنون التصريح والوضوح.

والأدب أشبه شىء بالنهر العظيم القوى الذى يندفع من ينابيعه فيشق مجراه حتى يصل إلى البحر ، قاهراً ما يلقاه من المصاعب ، مقتحماً ما يعترضه من العقاب ، محتالا فى شق

طريقه ألواناً من الحيل تنتهى به كلها إلى غايته ؛ فظلم الظالمين وبطش أصحاب الطغيان وتحكم الرقباء ، كل أولئك أضعف من أن يقوم فى سبيل الأدب والفن أو يحول بينهما وبين القراء .

يا لها ليالى قاتمة مظلمة كثيفة الإظلام ، لم يتح فيها للنجوم أن ترسل سهامها المشرقة ، ولم يتح فيها للقمر أن ينشر ضوءه الهادى الجميل ، وإنما ازدحمت فيها الظلمات يركب بعضها بعضاً ، وقد احتملنا أثقالها ونهضنا بأعبائها نكاد نختنق ، ولكننا مع ذلك نرسل أنفاسنا حارة محرقة كأنها شعل من نار تضيء لقرائنا الطريق وتهديهم إلى قصد السبيل .

وها هو الفجر الصادق قد أخذ يشير إلى الظلمات المتراكبة المتراكمة بأصبعه الوردية التى ذكرها الشعراء ، فتنهزم متفرقة كأنها لم تزدحم ولم يركب بعضها بعضاً ؛ وما هى إلا أيام وأسابيع ، وإذا الفجر الضئيل يمتد ويتسع ويملأ الأرض نوراً وجمالا وبراً وإنصافاً ؛ وهنالك لا يحتاج الأديب إلى حيلة ليعرب عن ذات نفسه ، ولا إلى رمز يخفى به سر ضميره على الرقباء ؛ وإنما يتحدث إلى قرائه فى صراحة ووضوح ويسر ورضى ، يصور لهم حياة ناعمة وعيشاً رغداً وعدلا واسعاً ، بعد أن صور لهم جحيم البؤس والجور والشقاء .

صدق الله الظنون ، وحقق الآمال ، وجعل ثورتنا الموفقة عضداً للحق وسنداً للعدل وأداة للإنصاف وسبيلا إلى المساواة ؛ وبدّل المعذبين فى الأرض من عذابهم رحمة ، ومن شقائهم سعادة ، ومن بؤسهم نعيما .

١
صالح

« إذا سمعت الشيخ يرفع صوته بالتكبيرة الأخيرة فأنبئنى ؛ فإن فعلت ذلك فأنت ابنى حقاً » . قال الصبى وهو يبتسم لأمه التى كانت تحدثه هذا الحديث وهى تداعب خده : « فإن لم أفعل فابن من أكون ؟ » .

هنالك وجمت أم الصبى شيئاً ، وتضاحك من حولها بنوها وبناتها ، ولكنها لطمت خد الصبى لطمة خفيفة ظريفة وهى تقول : « إنك لطويل اللسان كثير الخصام » ثم دست فى يد الصبى قطعة من سكر وأعادت عليه قولها : « إذا سمعت الشيخ يرفع صوته بالتكبيرة الأخيرة فأنبئنى ، وإن فعلت ذلك فلك مثلها قبل أن تنام » . قال الصبى وهو يقضم السكر قضما : « أما الآن فنعم » . ثم انطلق مسرعاً يتبعه ضحك أمه ومن حولها بنوها وبناتها .

وكانت الدار قائمة قاعدة فى ذلك المساء ؛ فقد ألم بها ضيف لهم خطر ومكانة فى الإقليم ، وهم لم يقبلوا أصفار الأيدى ؛ وإنما أقبلوا يحملون من الطرف والهدايا شيئاً كثيراً . وكانت سيدة الدار حريصة دائماً على الاحتفاء بالضيف ، مهتمة فى ذلك المساء بالتكبيرة الأخيرة حين يرفع الشيخ بها صوته

ليخرج بها من دعائه بعد صلاة المغرب . فقد كانت أصناف الطعام مهيأة تنتظر أن تُحمل إلى المائدة حين يفرغ الضيف من صلاتهم مع الشيخ ، وكان الثريد وهو أول هذه الأصناف قد هيئ ، ولكن تهيئته لم تتم بعد ؛ فقد فت الخبز فى طبق كبير ، وأعد المرق وتم إعداد الأرز ، وقطع الثوم قطعاً توشك أن تشبه الذرّات . ولكن إعداد هذا الصنف يجب ألا يتم إلا فى اللحظة الأخيرة حتى لا يشرب الخبز كل المرق ولا يذهب ريح الثوم والخل فى الجو ، ولا يبرد الأرز فيفسد ما ألقى عليه من السمن . من أجل هذا كله لم يكن بد من أن يتسمع الصبى لدعاء الشيخ حتى إذا رفع صوته بالتكبيرة الأخيرة أسرع إلى أمه فأنبأها ، وأسرعت هى إلى هذه الأخلاط من الخبز والمرق والثوم والخل والأرز فجمعتها فى هذا الطبق الكبير الذى كان ينتظرها منذ حين . فإذا استفتح العشاء بهذا الصنف تبعته الأصناف الأخرى على مهل وريث ، فليس فى الإبطاء بها بأس ولا جناح ، ولكن الصبى لم ينبئ أمه بشىء لأنه لم يسمع شيئاً ، وإنما شُغل عن التكبيرة الأولى وعن التكبيرة الأخيرة بأمر ذى بال . وقد فرغ الشيخ وضيفه من صلاتهم وجلسوا يتحدثون ينتظرون أن يحمل إليهم العشاء . وجعل الشيخ يترقب هذا العشاء قلقاً لأنه لم يتعود مثل هذا الإبطاء حين يلم به الضيف . وقد هم غير مرة أن يضرب إحدى يديه بالأخرى ليعلم أهل الدار أن

الضيف ينتظرون ، ولكنه استحيا وكره أن يظن به تنبيه أهل الدار ، وأن يُظَنّ بأهل الدار غفلة أو إهمال ، فمضى فى حديثه يرفع به صوته . ومرت من وراء الباب إحدى بناته ، فسمعت الصوت يرتفع بالحديث . وأسرعت إلى أمها فأنبأتها بما لم ينبئها به الصبي ، وما هى إلا لحظة حتى كان الضيف إلى مائدتهم يأكلون ويلغطون .

وقد كان الصبي خالص النية صادق الرأى ، قد اتخذ مرقبه فى زاوية من فناء الدار ، هنالك حيث تجتمع قطع من الحديد كان يراها كنزه ، وكان يخلو إليها فينفق الساعة والساعات فى جمعها وتفريقها وطرق بعضها ببعض ، يجد فى ذلك تسلية ولهواً ، ينفرد به مرة ويشارك فيه أخته الصغيرة مرة أخرى ؛ وقد جلس فى زاويته تلك أمام حديده ذاك ، واعتزم إذا أتم التهام قطعة السكر أن يقبل إلى قطع الحديد فيعبث بها فى رفق مانحاً الشيخ وضيفه إحدى أذنيه ، مستمعاً متتبعاً لصلاتهم ، حتى إذا سمع التكبيرة الأخيرة يرتفع بها صوت الشيخ انسل إلى أمه فألقى إليها النبأ ثم عاد إلى لعبه فمضى فيه .

ولكنه لم يكد يستقر فى زاويته ويمضى فى قضم سكره حتى أحس يداً تمس كتفه ، ونظر فإذا رفيقه صالح ماثل أمامه يداعب كتفه بإحدى يديه ويقبض بيده الأخرى على طاقة من زهر الحقول يقدمها إليه باسماً . وقد نظر الصبي إلى صالح

فراعه ثوبه الممزق قد ظهر منه صدره أكثر مما ينبغي ، وقد انشق عن كتفه فظهرتا منه نابيتين ، والثوب على ذلك رث قذر يظهر من جسم الصبي أكثر مما يخفى ، كأنه أسمال قد وصل بعضها ببعض وصلاً ما ، وعلقت على هذا الجسم الضئيل الناحل تعليقاً ما ، لتستر منه ما تستطيع ، وليقال إن صاحبه لا يمضي به متجرداً عرياناً . ثم رفع الصبي رأسه إلى وجه صالح فرأى بؤساً شاحباً يشيع فيه ، ورأى ابتسامة فيها كثير من حزن وكثير من أمل ، ورأى عينين تدوران تنظران إلى ما حولهما ، تنخفضان حيناً إلى هذا الحديد الملقى على الأرض ، وترتفعان حيناً إلى قطعة السكر فى يد رفيقه ، وترتفعان بعد ذلك إلى عناقيد الكرم هذه التى تتدلى على الجدران وتمتد على هذه العيدان التى نصبت لتحملها .

والصبي على ذلك كله باسط يده إلى رفيقه بهذه الطاقة الساذجة الخشنة من زهر الحقول يقول له : « لم أرد أن أعود إلى دارنا دون أن أمر بك وأحمل إليك هذه الأكمام التى لم تتفتح بعد . خذها إليك وضعها فى إناء فيه شيء من ماء وانتظر بها الصبح ، ثم أقبل عليها فستراها متفتحة عن زهر جميل طيب الرائحة » . لم يقل الصبي لصالح شيئاً ، وإنما أخذ منه زهراته وأعطاه ما بقي فى يده من قطعة السكر ، وأشار إليه أن يجلس ويلعب معه بقطع الحديد . وقد أخذ صالح قطعة السكر فأطال

النظر إليها ، والتحديق فيها ، وقربها من فمه ثم أبعدها عنه ، ثم نظر إليها نظرة قصيرة ، ثم دسها فى فمه بين خده وأضراسه واستأنى بها لتذوب فى رفق وليطول استمتاعه بذوقها الحلو . ثم جلس وأخذ يقلب مع رفيقه قطع الحديد . ثم لم يطل صمت الرفيقين ، وإنما استأنفا حديثهما عن الكتاب وعن الرفاق وعن الحقل وعن أهل القرية . وأنسى الصبي بهذا كله صلاة الشيخ والضيف والنبأ الذى كان يجب أن يحمله إلى أمه ، ولم يرعه بعد وقت طويل أو قصير إلا صوت أخته تدعوه من وراء الباب إلى العشاء .

وقد فرغ الشيخ وأصحابه من طعامهم وفرغوا كذلك من الصلاة الآخرة وما يتبعها من دعاء ، ودارت عليهم قهوة الليل . وجمعت ربة الدار الصغار من بنيها وبناتها إلى طعامهم ، وافتقدت صاحبنا ذاك المهذار فأرسلت أخته تلتمسه فى مظانه .

ولما سمع صوت أخته تدعوه أبطأ فى الاستجابة لها ، لأنه لم يكن يدرى كيف يخلص من رفيقه ، أو لم يكن يحب أن يخلص من رفيقه . ولكن صالحاً قال له فى صوت خافت حزين : « أجب ، إنك تدعى إلى العشاء » . قال الصبي لصالح : « وأنت هل تعشيت ؟ » قال صالح : « سأتعشى حين أبلغ الدار » . ونهض متثاقلا وأدبر يريد أن يخرج ، ولو استطاع لأقام ، ولكنه مضى . وعاد الصبي إلى أمه وفى يده تلك الزهرات ،

فلما رأته أنكرت نسيانه لما أمرته به ، ولكنها سألته عن هذه الزهرات من حملهن إليه . قال الصبي وفى صوته اختلاجة خفيفة : حملهن إلى صالح بن الحاج على . قالت أمه : « ولم تعطه شيئاً » ؟ قال الصبي : « أعطيته ما بقى لى من قطعة السكر » . قالت أمه : « وما تراه يصنع بقطعة السكر ؟ أتراه يدفع بها عن نفسه الجوع ، ألم تستبقه للعشاء ؟ » قال الصبي مضطرباً : « هممت ولكنى لم أجرؤ » . قالت أمه : « فامض فى أثره مسرعاً حتى تعود به وحتى تتعشى معه » . وانطلق الصبي كأنه السهم . ولم يكد يجاوز باب الدار حتى رفع صوته بدعاء صاحبه ، ولكنه لم يحتج إلى أن يعدو ، ولا إلى أن يكرر الدعاء ، فقد كان صالح قائماً أمام الدار قد استند إلى الحائط ومد بصره أمامه وقدم إحدى رجليه وأخر الأخرى يريد أن يمضى وتنازعه نفسه إلى البقاء . فلما سمع صوت رفيقه أجاب مستخذياً : «ها أنذا ، ماذا تريد ؟ » قال الصبي : « أريد أن تبقى لنتعشى معاً . » ولم يقل صالح شيئاً ، وإنما تحول إلى رفيقه وسعى فى أثره هادئاً مطرقاً كأنه الكلب يتبع صاحبه إذا دعاه .

ولم يكد الصبي يغلق الباب من دونه حتى رأى إحدى أخواته قد وضعت فى زاويته تلك كرسياً مستديراً وعليه صينية مستديرة مثله ، وقد كثرت على هذه الصينية الأطباق فيها من كل أصناف الطعام التى قدمت للضيف . وأبت أخت الصبي

أن تشارك الأسرة فى عشائها وآثرت أن تقوم على خدمة هذين الرفيقين . حتى إذا فرغا من طعامهما مضى صالح موفوراً وعاد الصبي إلى أمه راضياً . فقالت له وهى تمسح رأسه : « إذا زارك رفيق لك فى وقت العشاء فلا ينبغى أن تدعه ينصرف دون أن تدعوه إلى مشاركتك فى الطعام» . ثم قالت له بعد صمت قصير : « هل تعلم أن صالحاً إنما حمل إليك هذه الزهرات ليتعشى ؟ » قال الصبي : « لا أعلم » . قالت أمه : « لقد رأى الأضياف حين أقبلوا ، ورأى ما حملوا من الطرف والهدايا ، وعلم أن سيكون فى الدار خير كثير هذا المساء ، فأراد أن يصيب منه شيئاً . واتخذ أزهاره هذه تعلّة يلم بها فى الدار ليقدمها إليك » . قال الصبي : « لو رأيت ثوبه وقد بدا منه صدره وظهره وكتفاه ! » قالت أمه : « إذا خرجت من الكتاب غداً فاحمله على أن يصحبك ، فإن عندى من ثيابك ما يكسوه » .

ثم انصرفت إلى بنيها وبناتها تحدثهم عن الضيف وعن العشاء ، تلوم هذه لأنها نسيت أن تحرك الأرز حين ألقته فى الماء وهو يضطرب من الغليان ، وأوشك هذا اللون من ألوان الطعام أن يفسد ويصبح عجينة متماسكة لا تصلح لشىء ، ومن حق الأرز ألا يلتئم ولا يتماسك وأن تتفرق حباته وتمتاز . وتثنى على تلك لأنها رفقت بالفالوذج فلم تتركه سائلا تفيض به الملاعق كأنه الحساء ، ولم تجعله جامداً تقطعه الملاعق

قطعاً ولم تهمل تحريكه حتى تتخلله تلك العقد البغيضة التى لا تجعله سائغاً ولا يسيراً ، وإنما صنعته سواء سهلا لا يبلغ الأفواه حتى تدعوه الحلوق ، وهو فيما بين ذلك خفيف حلو المذاق . وإنها لتتحدث إل بناتها هذه الأحاديث التى كانت تعلمهن بها فنون الطهى والتى كان أبناؤها يسمعون لها فيغرقون فى ضحك متصل ، وإذا الصبى يقطع عليها حديثها ويسألها ما بال صالح لم يتعش فى داره ؟ أجابت أمه : « ألم أقل لك إنه أحس أن سيكون عندنا خير كثير فأراد أن يصيب منه ؟ » قال الصبى : « فإنى أرى الأضياف يلمون بجارنا كما يلمون بنا ، وأعرف أن عند جارنا خيراً كثيراً فلا أسعى إلى أترابى من أبنائه ولا أحاول أن أصيب مما عندهم » . قالت : « لأنك لست فى حاجة إلى ذلك فلست محروماً » . قال الصبى : « فصالح محروم إذن ؟ » قالت أمه متضاحكة ، وقد أخذ إخوته من حوله يضيقون بلجاجته وإلحاحه : « لأن أباك ميسر عليه فى الرزق ، وقد قتر فى الرزق على أبى صالح » . قال الصبى : « ولماذا ؟ » قالت أمه : « إنك لمكثار » . ثم التفتت إلى كبرى بناتها وهى تقول : « خذيه إلى مضجعه ، فقد تقدم الليل وآن له أن ينام » .

وأصبح الصبى فغدا على كتابه كما تعود أن يفعل خمسة أيام فى الأسبوع . وقد يخطر للقارئ أن يسألنى عن هذا الصبى ما اسمه ؟ وما موطنه ؟ وما بيئته ؟ وما أسرته ؟ ومن عسى أن

يكون ؟ ولكنى أجيب القارئ إن خطرت له هذه الأسئلة كما كان الكاتب الفرنسي « ديديرو » يجيب قراءه حين يخيل إليه أنهم يسألونه أو يهمون أن يسألوه عن بعض الأمر من قصصه ــ أجيب القارئ بأنه يسرف على نفسه وعلىّ بهذه الأسئلة التى قد يكون الرد عليها مفيداً لتكون القصة منسقة حسنة البناء ملتئمة الأجزاء يأخذ بعضها برقاب بعض ، كما كان النقاد القدماء يقولون . ولكنى لا أحاول أن أضع قصة فأخضعها لما ينبغى أن تخضع له القصة من أصول الفن كما رسمها كبار النقاد ، فقد يجب لتستقيم القصة أن يحدد الزمان والمكان وتستبين شخصية الناس الذين تحدث لهم الحوادث أو الذين يحدثون هذه الحوادث ، الذين تعرض لهم الخطوب . أو الذين يبتكرون هذه الخطوب

لا أضع قصة فأخضعها لأصول الفن . ولو كنت أضع قصة لما التزمت إخضاعها لهذه الأصول ، لأنى لا أومن بها ولا أذعن لها ولا أعترف بأن للنقاد مهما يكونوا أن يرسموا لى القواعد والقوانين مهما تكن ، ولا أقبل من القارئ مهما ترتفع منزلته أن يدخل بينى وبين ما أحب أن أسوق من الحديث ، وإنما هو كلام يخطر لى فأمليه ثم أذيعه ، فمن شاء أن يقرأه فليقرأه ، ومن ضاق بقراءته فلينصرف عنه ؛ ومن شاء أن يرضى عنه بعد فليرض مشكوراً ، ومن شاء أن يسخط عليه بعد القراءة فليسخط مشكوراً أيضاً . والمهم هو أن يخطر لى الكلام وأن أمليه وأن

أذيعه ، وأن يجد القارئ ما يشعره بأن له إرادة حرة تستطيع أن تغريه بالقراءة وأن تصده عنها ، وأن يشعر القارئ أيضاً بأن له ذوقاً صافياً يستطيع أن يعرف فى الأدب وأن ينكر ، وأن يقبل من الأدب أو يرفض ؛ وليس هذا كله بالشيء القليل . وما أحب أن يظن القارئ أنى أتحكم فيه أو أتجنى عليه ، فأنا أبعد الناس عن التحكم وأزهدهم فى التجنى ، وأشدهم للقارئ حبّاً وإكباراً . ولكنى لا أحب أن يتحكم القارئ فىّ ولا أن يتجنى علىّ ولا أن يخضعنى لذوقه ، كما لا أحب أن أخضعه لذوقى . ويجب أن تكون الحرية هى الأساس الصحيح للصلة بين القارئ وبينى حين أكتب أنا ويقرأ هو . ولو أنى استجبت لهذه الأسئلة فبينت موطن الصبى وبيئته وعرفت أسرته إلى القراء لطال بى الحديث أكثر مما أحب أن يطول . وليس فى الحديث صبى واحد ، بل فيه صبيّان ؛ أحدهما صالح هذا الذى يتخذ زهرات الحقول وسيلة إلى عشاء يصيبه ، والآخر هو هذا الصبى الذى وجد عنده صالح هذا العشاء . ولأكن منصفاً ، فقد يكون من حق القارئ أن أسمى له هذا الصبى الثانى ما دمت قد سميت له الصبى الأول ، ليكون الأمر ميسراً له فلا يضطرب بين صبى يعرف اسمه واسم أبيه وصبى آخر لا يعرف من أمره شيئاً . والواقع أنى حين أخذت فى إملاء هذا الحديث لم أكن أعرف لهذا الصبى الثانى اسماً . وما زلت أجهل اسمه إلى

الآن . فلم يكن شخص هذا الصبي ولم يكن شخص صالح يعنيني ، وإنما كانت الأحداث التي حدثت للصبيين هي التي تعنيني . وأكبر الظن أن صالحاً هذا لم يوجد قط لأنه يملأ المملكة المصرية من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها ، يوجد في القرى ويوجد في المدن ويوجد في كل مكان ، يملأ مصر نعمة وخيراً ، وهو مع ذلك يُشعر الناس بأن مصر هي بلد البؤس والشقاء . وأنا أزعم أن قارئ هذا الحديث مهما يكن لا يستطيع أن يقضي يوماً من دهره أو ساعة من يومه دون أن يرى صالحاً هذا الذي لا يجد ما ينفق ، والذي يود أن تتاح له الوسيلة ليجد الغداء أو العشاء ، عند رفيقه ذاك الصبي الذي لم نجد له اسماً إلى الآن . فلنتفق على أن اسمه أمين ، وعلى أنه كان يختلف إلى الكتاب مع قليل جداً من أمثاله الذين يعيشون في شيء من اليسر ، وكثير جداً من أترابه الذين يستظلون بهذا الظل الوارف الجميل ، ظل البؤس والشقاء والحرمان وابتغاء الوسيلة للظفر بما يقيم الأود عند هذا الرفيق أو ذاك .

لم يوجد صالح قط لأنه يملأ المملكة المصرية . وإذا أسرف الشيء في الوجود فهو غير موجود ، سواء أرضيت الفلسفة عن هذا الكلام أم لم ترض . أما أمين فموجود من غير شك ، لأننا نراه ولا نكاد نرى غيره ، لأنه عظيم الخطر ، فهو هذا الصبي الذي لا ينام جائعاً إذا أقبل الليل ، ولا يغدو طاوياً على المدرسة

أو على الكتاب ، ولا يطول انتظاره للغداء إذا آن وقت الغداء ، ولا ينبغي أن يطول انتظاره للعشاء إذا أقبل الليل ، لأن من حقه أن يتناول الطعام فى إبانه ، وأن يأخذ قسطه من النوم حتى لا تتعرض صحته الغالية لبعض ما يؤذيها . هذا الصبى أو هذا الفتى الذى اتفقنا على أن اسمه أمين موجود من غير شك ، لأنه لا يملأ القرى ولا يملأ المدن ، وإنما هو شخص ممتاز يمكن أن يحصى أمثاله وأترابه إحصاء دقيقاً فى كل قرية وفى كل مدينة ؛ وهو من أجل ذلك موجود ، لأن عدده محدود، ولأننا نستطيع إحصاءه واستقصاءه والدلالة عليه . وهنا يرتفع رأس القارئ وقد ظهرت على وجهه ابتسامةساخرة وبرقت عيناه بريق الانتصار والفوز وهو يسألنى فى صوت فاتر ساحر : لقد أردت أن تتجنب الإطالة بالإجابة على أسئلتنا ، فهل أنت إلا ممعن فى الإطالة بهذا الكلام الكثير الذى لا يغنى ولا يفيد ! معذرة يا سيدى القارئ الكريم ! بل إن هذا الكلام الكثير يغنى كل الغناء ويفيد كل الفائدة . فأنت تلقى فى كل يوم ألف صالح وصالح دون أن تحس لواحد منهم خطراً أو تعرف له وجوداً . قد كثر لقاؤك لهم واتصلت معاشرتك إياهم حتى أصبحت الحياة بينهم شيئاً يسيراً مألوفاً لا يحفل به ولا يلتفت إليه ، وحتى أصبحت معاشرة البؤس والشقاء والحرمان شيئاً تطمئن إليه كما تطمئن إلى الصحة والعافية، ولا تلتفت إليه كما

أنك لا تلتفت إلى الهواء الذى تتنفسه والنور الذى تهتدى به . وترى أميناً أو أمينين أو أمناء بين حين وحين فيملأ كل واحد منهم قلبك وعقلك ويشغل همك وعنايتك . فأيهما خير : أن ألفتك إلى صالح هذا البائس المسكين الذى ملأ مصر نعمة وخيراً وملأت مصر حياته شقاء وبؤساً ، أم أن أحدثك عن أمين وموطنه وبيئته وأسرته لتستقيم القصة وتستوى رائعة بارعة ملائمة لأصول الفن التى رسمها النقاد ؟ أما أنا فأوثر أن أتحدث إلى قلبك وما يضطرب فيه من عاطفة وما يشيع فيه من شعور ، على أن أتحدث إلى عقلك وذوقك وما يثيران فى نفسك من تهالك على النقد وحب للاستطلاع .

أوثر أن أتحدث إلى قلبك وأن ألفتك إلى صالح هذا الذى وجد وأسرف فى الوجود ، حتى اعتقدنا أو كدنا نعتقد أنه غير موجود . ومن يدرى ! لعلى حينما ألفتك إلى صالح إنما ألفتك إلى نفسك . وما أحب أن تغضب ولا أن تثور ، فما أردت ، وما ينبغى أن أريد إلى إيذائك أو التعريض بأنك قد اتخذت فى يوم من الأيام زهرات الحقول وسيلة إلى خير تصيبه كما فعل صالح ، وإنما أردت أن أقول إن فى حياة كل واحد منا نحن كثرة المصريين شيئاً من صالح ، فصالح صورة البؤس والشقاء والحرمان . وما أقل المصريين الذين لا يصورون بؤساً ولا شقاء ولا حرماناً ! وليس البؤس مقصوراً على هذه الصفة التى

أتى من الفقر وما يستتبعه الفقر من الجوع الذى يمزق البطون والإعدام الذى يمزق الثياب ويظهر من ثناياها الصدور والظهور والأكتاف ، ولكن البؤس قد يتصل بأشياء أخرى ليست جوعاً ولا إعداماً ولكنها قد تكون شراً من الجوع والإعدام ، لأنها تتصل بالنفوس والقلوب . وإنى لأعرف قوماً كثيرين تمتلئ أيديهم بالمال ويعظم حظهم من الثراء حتى يضيقوا به ، وهم مع ذلك يجدون بؤساً أى بؤس وشقاء ، أى شقاء ويتخذون زهرات الحقول أو هذا الزهر الذى تصنفه أيدى الحسان تصنيفاً فى الحواضر والمدن وسيلة إلى شىء يصيبونه عند من يكونون أقل منهم غنى وأضيق منهم ثراء .

مهما يكن من شىء فقد غدا الصبى الذى اتفقنا على أن اسمه أمين على كتابه كما تعود أن يفعل إذا كان الصباح ، فلقى أترابه وشاركهم فى الجد والهزل وفى الدرس واللعب . حاول أن يحفظ حصته من القرآن فانصرف عن هذا الحفظ إلى مداعبة اللدات والأتراب . وكان قد أنسى قصة صالح ولم يذكر إلا أنه سيعود معه آخر النهار إلى الدار ، ولكنه اضطر حين تقدم النهار إلى أن يذكر صالحاً فى كثير جداً من القلق والخوف ، ثم فى كثير جداً من الجزع والهلع ، ثم فى كثير جداً من الألم والحزن ، فقد سمع سيدنا الضرير يسأل عريفه البصير : هل تفقدت الأختام ؟ قال العريف : نعم . قال سيدنا : وهل سلمت لك

كلها ؟ قال العريف : نعم إلا ختم صالح بن الحاج على فإنه قد ضاع ، وما أشد حاجة هذا الفتى إلى التأديب، فإنه لا يطيع أمراً ولا يسمع كلاماً ولا يخرج من الكتاب مع العصر إلا لينغمس فى الماء .

وهنا يسأل القارئ — وما أكثر ما يسألنى القراء كما كانوا يسألون الكاتب الفرنسي الذى ذكرته آنفاً — هنا يسأل القارئ عن هذه الأختام ما هى ؟ وماذا يمكن أن تكون ؟ ولا بد من أن أجيبهم ؛ فأكثرهم من أبناء هذا الجيل الذين لم يذهبوا إلى الكتاب ولم يعرفوا قصة الأختام والماء ، وقليل منهم قد بعد عهده بالكتاب وما كان يحدث فيه من خطوب . كانت قصة الأختام هذه تمثل فى الكتاب كل عام حين يقدم الصيف ويشتد القيظ ويحب الصبية والفتيان أن يتبردوا بماء النهر أو بماء القناة إذا خرجوا من الكتاب مع العصر أو إذا ذهبوا إلى دورهم للغداء. وكانوا يسرعون إلى نسيان القيظ والتبرد متى انغمسوا فى الماء وينصرفون إلى العبث والسباحة والاستباق فى العوم . وكانت الأسر تشفق عليهم من ماء النهر ومن ماء القناة ، وتطلب إلى سيدنا أن يتخذ ما يرى من وسائل التأديب والتقويم ليصدهم عن هذه الرياضة الخطرة . . وسيدنا قد اتخذ قطعة مستديرة من الخشب واحتفر فيها شيئاً لا أدرى ما هو . فإذا كان الضحى يرتفع أقبل العريف بهذه القطعة من الخشب التى كانت تسمى

الختم وغمسها فى مادة حمراء وختم بها أفخاذ الصبية والفتيان الذين كان يظن بهم حب الرياضة فى ماء النهر أو ماء القناة . وكان زوال الآية التى يتركها الخاتم فى فخذ الصبى أو الفتى دليلا على أنه قد خالف الأمر وقارب هذا الإثم العظيم . فلم يكن بد إذن من تفقد هذه الأختام فى كل يوم وتجديدها إذا محاها طول الوقت ، وعقاب الصبى أو الفتى إذا محيت آية الختم عن فخذه قبل الأوان . ولست أدرى أيعرف القارئ أو لا يعرف أن العريف فى الكتاب قد كان رمز الرشوة والفساد ، كما أن سيدنا قد كان رمز السذاجة والقسوة . ولكن المحقق أن الصبية والفتيان كانوا يقترفون إثمهم هذا العظيم فى غير اكتراث ، ولا يكادون يخرجون من الكتاب حتى يسرعوا إلى الماء ويلقوا أنفسهم فيه . وكانوا يشترون كذب العريف ورضاه بما يقدمون إليه من هذه الطرف اليسيرة التى يحملونها من بيوتهم ، يسرقونها للعريف أحياناً ويصرفونها عن أنفسهم إليه دائماً . ولم يكن صالح يحمل طرفاً يسيرة ولا خطيرة لنفسه أو للعريف ، فقد طال على العريف إبطاء صالح عليه بالرشوة ، ولم يسأل نفسه أكان هذا الإبطاء عن عجز أم كان عن عمد ومكر . فأراد أن يؤدبه فأفشى أمره لسيدنا ؛ ولو آثر الصدق لما خص صالحاً بهذه الوشاية . وكان أمين يعلم هذا حق العلم كما كان يعرفه غيره من أترابه ، ولأمر ما امتلأ قلبه فجاءة حبًّا لصالح وعطفاً عليه ورحمة له .

فلم يكد يسمع العريف البصير يغرى به سيدنا الضرير حتى صاح بأعلى صوته : إن العريف لم يقل لك الحق كله ؛ فليس صالح وحده هو الذى فقد ختمه ، وإنما فقده الأتراب جميعاً لأنهم يذهبون جميعاً إلى النهر أو إلى القناة ، ولكنهم يرشون العريف بما يحملون إليه من طرف ، فأما صالح فلا يحمل إليه شيئاً . وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الشجاعة أن أديرت الفلقة على ساق صالح وعمل السوط فى رجليه حتى دميتا ، ثم أديرت الفلقة على ساق أمين ومس السوط رجليه مساً خفيفاً لم يدمهما ، ولكنه علم أميناً أن الشجاعة والصراحة وقول الحق خصال لا تحسن فى جميع المواطن . . . ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهانت المحنة وسهل احتمالها ، ولكن الأتراب والرفاق أعرضوا عن صالح وأمين واتخذوهما عدواً ، وجعلوا يكيدون لهما ويمكرون بهما ويذيقونهما من العنت فنوناً وألواناً . وقد عاد صالح مع أمين إلى داره لا يكاد يحسن المشى على رجليه ، ولكنه وجد عند رفيقه تسلية وتعزية . ولم تكد أم أمين ترى هذا البائس المسكين حتى رحمته ورقت له وآثرته ببعض الخير ، ثم أهدت إليه ثوباً من ثياب ابنها ، لم يكد صالح يراه حتى جن جنونه وخرج عن طوره من الفرح ، ونسى الفلقة التى دارت على ساقيه والسوط الذى مزق قدميه ، وأقسم ليسرعن إلى الماء ويغسلن نفسه فيه ، وليضيعن آية الختم الجديدة ، وليتعرضن لوشاية العريف ،

وغضب سيدنا ، فما ينبغى أن يلبس هذا الثوب الجميل دون أن يستحم ويزيل من جسمه آثار ذلك الثوب البالى القذر . قالت له أم أمين : لا بأس عليك ؛ فسأطلب من سيدنا أن يعفيك من الفلقة والسوط غداً . وانصرف الصبى فرحاً مرحاً محبوراً . وقال أمين لأمه : ألا تنبئينى الآن لماذا ضرب سيدنا صالحاً ضرباً مبرحاً حتى أدمى رجليه ، ولم يضربنى أنا إلا عابثاً ؟ قالت : لأن صالحاً أضاع الختم وخالف الأمر وانغمس فى الماء فكان ذنبه عظيماً يستحق عقاباً عظيماً . فأما أنت فقد خرجت عن حدود اللياقة حين قلت أمام أترابك ما قلت فى العريف ، فكنت خليقاً أن تلقى عقاباً يسيراً . قال الصبى : وأنا مع ذلك لم أقل إلا الحق . قالت أمه وهى تضحك : فإن الحق لا يقال فى جميع المواطن . قال الصبى : وكيف السبيل إلى أن أعرف المواطن التى يقال فيها الحق والمواطن التى يقال فيها الباطل ؟ قالت أمه وهى تضحك : ستعرف هذا كله إذا تقدمت بك السن ، فأما الآن فانصرف إلى حديدك هذا الذى فى زاويتك تلك والعب به ، وتحدث إليه حتى تدعى للعشاء .

وذهب أمين إلى حديده فلعب به ، وتحدث إليه وأحدث من الضجيج والعجيج ما شاء الله أن يحدث ، ولكنه انصرف عن حديده وزاويته وسعى إلى أمه يسألها : ما بال صالح لا يحمل إلى العريف مثل ما يحمل إليه غيره من الطرف والهدايا ؟

قالت أمه : لأن صالحاً فقير معدم لا يجد ما يقوت به نفسه فضلا عن أن يجد ما يهدى إلى العريف . قال أمين : ولماذا كان صالح فقيراً معدماً لا يجد ما يقوت به نفسه وما يدفع به شر العريف ؟ قالت أمه وقد أخذت تضيق بإلحاحه : لقد عدت إلى ثرثرتك فامض لشأنك ولا تثقل على . ولكن الصبى لم يمض لشأنه وإنما مضى فى الأثقال على أمه ، فلم تتخلص منه إلا حين أظهرت له الغضب وأنذرته إنذاراً كاد يبكى له ، ثم رحمته فوضعت فى يده قطعة من النقد وهى تقول : اذهب فاشتر بهذا شيئاً من الحلوى . قال الصبى مبتهجاً : سأشترى بنصفه شيئاً من الحلوى وسأدفع نصفه الآخر إلى صالح ليؤديه إلى العريف إذا كان الغد . ثم انصرف يعدو وقد ارتفع صوته بالغناء .

ولكن أميناً لم يدفع نصف القرش إلى صالح ؛ لأن صالحاً لم يذهب إلى الكتاب من غده . وقد وقع فى نفس الصبى شىء من الغيظ ثم من الحزن حين التمس رفيقه فلم يجده ، وحين انتظر مقدمه فلم يقبل حتى ارتفع الضحى ، وحين استيقن أن صالحاً لن يلم بالكتاب من يومه ، ثم لم يلبث أن تسلى عن صالح وغيبته بمداعبة الرفاق والأتراب . ثم لم يكد يفرغ من غدائه بين سيدنا الضرير وعريفه البصير حتى خرج ليشهد صلاة الظهر فيما زعم ، ولكنه اشترى بنصف القرش هذا السخف الذى

يحبه الصبية، وعبث مع أترابه حول المسجد ، وعاد معهم إلى الكتاب وما يشك سيدنا وما يشك عريفه فى أنه قد شهد الصلاة.

وانقطع صالح عن الكتاب يوماً ويوماً ، ثم أقبل ذات صباح كئيباً محزوناً لا يكاد قده يستقيم من الضعف . ونظر أمين فإذا هو فى ثوبه ذلك البالى القذر . وقد تلقى أمين رفيقه مبتسماً به حفياً به مستنبئاً عن غيبته تلك التى طالت . وهم صالح أن يجيب ، ولكن صوته احتبس فى حلقه وجرت على خديه دموع منسجمة غزار ، فبهت أمين لأنه لم يعرف البكاء الصامت قط ، ولم يقدر أن الصبية يمكن أن يبكوا دون أن يمسهم سوط سيدنا أو دون أن يعنف بهم الآباء والأمهات ليؤدبوهم بالأيدى حيناً وبالكلام أحياناً . ثم استبان لأمين من أمر رفيقه ما ملأ قلبه حزناً ودفعه إلى كثير من الحيرة والشك والاضطراب . فقد كان الثوب الذى أهدته أمه لرفيقه مصدر شقاء عظيم وضر ملح لهذا الرفيق البائس .

خرج صالح بثوبه الجديد مسروراً محبوراً تكاد ساقاه تسبقان الريح عدواً، ويكاد صوته المرتفع بالغناء يُسكت الطير التى كانت ترقص على أغصان التوت وتنشر فى الجو ألحانها العذاب ، وانغمس فى القناة كأحسن ما تعلم أن ينغمس ، وعام فى القناة كأحسن ما تعود أن يعوم ، فبذ الأتراب وتفوق على الرفاق ، وخرج من القناة فرحاً مرحاً مبتهجاً مغتبطاً ، وقد

امتلأت نفسه رضاً وامتلأ قلبه سعادة ، وفاض من نفسه الرضية وقلبه السعيدة على جسمه جمال غريب لفت إليه أصحابه وأترابه ؛ وقال بعضهم لبعض : ما رأينا صالحاً كما نراه اليوم ، حسن المنظر رائع الطلعة قد امتلأ قوة وحياة ونشاطاً . ثم دخل فى ثوبه الجديد، وكاد السرور أن يدفعه إلى شىء من الغرور ، ولكن الحياء اضطره إلى بعض القصد وأمسكه فى بعض الاعتدال ، فرضى عن نفسه فى دخيلة ضميره ، وارتفعت إليه أبصار أصحابه بألوان من الغبطة والحسد ومن العطف والبغض .

وعاد مع مغرب الشمس إلى داره يكاد يخطر فى ثوبه الجديد وقد طوى ثوبه البالى القذر وحمله بين ذراعيه وجنبه متأذياً متكرهاً لاحتماله ، ولو استطاع لتركه فى بعض الطريق ، ولكنه كان أذكى من ذلك قلباً وأصدق من ذلك فطنة ، فاحتمل ثوبه ذلك البالى إلى امرأة أبيه لعلها تستطيع أن تصنع منه شيئاً .

وما أشك فى أن القارئ سيقف عند هذا الموضع من الحديث ، وسيسأل نفسه ولو استطاع لسألنى أنا : ألم يكن من الخير أن نعرف من أول القصة أن صالحاً قد فقد أمه وأنه كان يعيش يتيماً ينعم بما يختلس من حب أبيه سرًّا ويشقى جهرة بما يصب عليه من بغض هذه الضرة التى قامت مقام أمه فى البيت ؟

ولست أشك فى أن القارئ سيضيف إلى هذا السؤال

ملاحظة فيها شيء من القسوة والسخرية والغيظ فيقول فى نفسه : لو أن الكاتب سلك فى قصته هذه الطرق الممهدة والسبل المعبدة التى رسمها النقاد للقصة لعرّف إلينا صالحاً فى أول حديثه ولأنبأنا بموت أمه وتزوّج أبيه ، ولأعفانا من هذه المفاجأة التى لم نكن فى حاجة إليها . ولكنى أعيد على القارئ ما قلته آنفاً من أنى لا أضع قصة؛ وإنما أسوق حديثاً ، وأضيف إلى ذلك أن الذين يسوقون الأحاديث لا يقدمون بين يديها هذه المقدمات التى يبيتون فيها الموطن والبيئة والأسرة والزمان والمكان إلى آخر هذا الكلام الكثير الفارغ الذى يلهج به النقاد،ولو أنى بدأت هذا الحديث برسم واضح دقيق لشخصية صالح وأمين ومن يتصل بصالح وأمين من الناس ، لضاق القراء بهذه المقدمات أشد الضيق ولقال بعضهم : تجاوز حديث الطوفان وصل إلى غايتك فلسنا من الغباء والغفلة بحيث نحتاج إلى كل هذا التمهيد .

وبعد فمن أنبأ القارئ بأن صالحاً يتيم وبأن أمه قد ماتت ؟ الشيء الذى لا أشك فيه ولا ينبغى أن يشك فيه القارئ هو أن صالحاً لم يكن يتيما ، وأن أمه لم تكن ميتة ، وإنما كانت حية أكثر مما ينبغى أن يحيا الناس ، إن صح أن تكثر الحياة وتقل . وسواء رضى القارئ أم لم يرض فقد كانت أم صالح حية من غير شك ، لأنى أنا أريد ذلك ، وليس يعنينى ما يريد غيرى من الناس ، فأنا الذى اخترع صالحاً من لا شيء،أو

أخذ صالحاً من عرض الطريق ، لأن صالحاً موجود ولأنه غير موجود ؛ موجود فى حقيقة الأمر ، لأننا نراه فى كل ساعة وفى كل مكان ، وغير موجود فى حقيقة الأمر أيضاً لأنه يملأ المدن والقرى ويسرف على نفسه وعلى الناس فى الوجود . والشىء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ، كما يقال ؛ فأنا إذن وحدى — كما كان يقال أيضاً — أعرف من أمر صالح ما لا يعرف غيرى من الناس ، وأقرر أن أمه لم تترك الدار لأنها ماتت ، وإنما تركت الدار لأنها طلقت . وأنا أستطيع أن أصنع بأمه بعد هذا الطلاق ما أشاء : أستطيع أن أدعها مطلقة تعمل خادماً فى بعض الدور ، وأستطيع أن أجد لها زوجاً تعيش معه سعيدة موفورة ، وأستطيع أن أسخرها لعمل من هذه الأعمال التى يعيش منها أمثالها من البائسات ، فقد أسخرها لبيع الخضر ، وقد أسخرها لبيع الفاكهة ، وقد أكلفها أن تصنع الخبز فى بيوت الأغنياء وأوساط الناس ، وقد أكلفها أن تغسل الثياب فى هذه البيوت ، وقد أجد لها ما أشاء من الأعمال غير هذا كله ، لأنى حر فيما أحب أن أسوق إلى القارئ من حديث ؛ ولأن القارئ مضطر إلى أن يتلقى حديثى كما أسوقه إليه ، ثم هو حر بعد ذلك فى أن يقبله أو يرفضه ، وفى أن يرضى عنه أو يسخط عليه .

والواقع من الأمر أنى لا أكلف أم صالح شيئاً من هذه الأعمال التى ذكرتها ، ولا أفرض عليها شيئاً من هذه الخطط التى

رسمتها ، لأنى على حريتى فى أن أصنع بها ما أشاء ، أوثر الأمانة فى رواية التاريخ ، وقد حدثنى التاريخ بأن خديجة أم صالح قد كانت شاذة الخلق سيئة العشرة ، وبأن الحاج علياً أبا صالح لم يكن ظالماً ولا جائراً حين طلقها بعد أن ولدت له صالحاً بعام أو عامين . فقد كان هذا الرجل طيب القلب سليم النفس ، لا يحب شيئاً كما يحب الدعة والهدوء . وكانت امرأته خديجة أم صالح منكرة الخلق بغيضة العشرة كثيرة الكلام شديدة الصياح ، لا ترضى بشىء ولا ترضى عن شىء ، فاضطر هذا الرجل البائس إلى فراقها ، واستبقى ابنه صالح فى كنفه ، وحاول أن يفرغ له ويقوم على تربيته فلم يستطع ، لأن خطوب الحياة تكلف أمثاله أن يعملوا ليعيشوا . ولم يكن من الممكن أن يعمل الرجل لكسب القوت وأن يفرغ لتربية ابنه ، وهو بعد ذلك رجل من الناس لا يستطيع إلا أن يعيش كما يعيش الناس ، فاضطر إذن أن يتخذ لنفسه امرأة تربى له صالحاً وتمنحه غيره من الولد ؛ واتخذت خديجة لنفسها زوجاً يعينها على الحياة ويعوضها من صالح هذا الذى احتجزه أبوه لأنه اشترى القاضى بأرطال من البن . وماذا تريد أن أصنع وقد كانت الحياة تجرى على هذا النحو فى ذلك العهد القديم .

وليس أدل على أن أبا صالح قد كان معذوراً حين فارق امرأته ، من أن خديجة قد اضطرت زوجها الثانى إلى أن يطلقها

بعد أن وهبت له غلاماً أسماه سعيداً ، وهو قد فارقها لتلك الأسباب التى فارقها من أجلها زوجها الأول ؛ فقد كانت سيئة العشرة بغيضة الخلق كثيرة الكلام مرتفعة الصياح لا ترضى بشيء ولا ترضى عن شيء . ولكن حظها فى هذا الطلاق الثانى كان حسناً أو سيئاً لا أدرى ! فما أكثر ما تختلط أمور الناس على الأذكياء حتى لا يفرقوا بين الخير والشر ، فكيف بمن كان مثلى قليل الحظ من الذكاء لا يفرق بين السعادة والشقاء ! والشيء المحقق هو أن خديجة لم تكد تطلق حتى مات زوجها وترك لها سعيداً تربيه كما تشاء أو كما تستطيع ؛ ولم تربه كما شاءت أو كما استطاعت ، وإنما ربته الطبيعة كما أحبت . وقد زهد الأزواج فى هذه المرأة ذات العشرة السيئة والخلق البغيص ، وثقلت الحياة على هذه المرأة ذات الحيلة الضيقة والعقل الكليل ، فباعت الفجل حيناً والترمس حيناً آخر ، ثم اختلط الأمر عليها فجنت جنوناً هادئاً رفيقاً ، عطف عليها القلوب وأخاف منها الناس ، فسميت «خديجة المعفرتة» وعاشت من إحسان المحسنين.

وبينما كان ابنها سعيد ينمو فى ظل هذا الجنون الهادئ المخيف ، كان ابنها صالح ينشأ فى ظل هذه الضرة التى أظهرت حبا له وعطفاً عليه ، ثم رزقت البنين والبنات فأظهرت بغضاً له وضيقاً به . وكذلك نشأ أحد الأخوين فى حماية البغض العاقل ، ونشأ الآخر فى رعاية الحب المجنون .

حدثنى أيها القارئ العزيز أكان من الخير أن أعرض عليك تفصيل هذا كله ، فى أول هذا الحديث فتضيق بى وبصالح وبأمين وبالسِّفر الذى يحمل إليك هذا الحديث ، أم كان الخير أن أذهب إلى المذهب اليسير الذى اخترته، وأن أحدثك بكل شىء حين يحين التحدث به إليك ؟ أنا أعرف أنك ستعاند وستمارى ، وستذهب فى عنادك ومرائك مذاهب مختلفة ، فأنت وما تشاء . أما أنا فقد ذهبت المذهب الذى اخترته ، وحدثتك بالأمر على النحو الذى آثرته ، وانتهيت منذ حين إلى أن صالحاً قد استحم فى القناة ودخل فى ثوبه الجديد وعاد إلى امرأة أبيه مسروراً بهذا الثوب الذى لبسه مهدياً ثوبه القديم الذى ضمه بين ذراعيه وجنبه .

ولكن امرأة أبيه نظرت إليه من رأسه إلى قدمه ، فرأت ثوبه الجديد ورضيت عنه، ورأت ثوبه القديم وضاقت به ، ثم أدارت بصرها فى الحجرة ، فرأت ابنها وبنتها قد اتخذا ثوبين باليين كذلك الثوب القديم ، يبديان عن الكتفين كما يبديان عن الظهور والصدور ، ثم ردت النظر إلى صالح فى ثوبه الجديد ، ثم أعادت النظر إلى ابنيها فى ثوبيهما القديمين ، ثم ارتدت عيناها إليها وقد ارتسمت فى نفسها الخطة واضحة جلية ولكنها بشعة بغيضة ؛ فإن هذا الثوب الجديد لم يخلق لصالح ، وإنما خلق لابنها محمود . ولم يشرق الصبح من غد حتى كان صالح قد

لقى من أبيه ومن امرأة أبيه نكراً . فضرب ضرباً مبرحاً مرض له أياماً، وجرد من ثوبه الجديد الجميل ورد إلى ثوبه القديم البالى، وعجز الفتى عن الذهاب إلى الكتاب من غده، وأقام فى الدار ملقى فى زاوية من زواياها يهمل فى ازدراء ويمرض فى عنف، حتى إذا استطاع أن يمشى على قدميه سعى إلى الكتاب ليشقى فيه ببغض العريف وقسوة سيدنا، ولينعم فيه بعشرة أمين.

كذلك عرف أمين قصة رفيقه البائس، فلم يدر عقله الناشئ كيف يقضى فى هذه القصة. لو أنه لم يتحدث إلى أمه عن ذلك الثوب البالى الذى كان صالح يلبسه لما أهدت أمه إلى صالح ذلك الثوب الجديد، ولمضت أمور صالح على ذلك البؤس الهادئ المطرد. فهو إذن قد أراد أن يحسن إلى رفيقه فأساء إليه. أيلوم نفسه فى ذلك أم يلتمس لها المعاذير؟ والحق أنه لم يلم نفسه أو يعذرها، وإنما فرغ لصاحبه يعزيه ويسليه، وحدث نفسه بأن أمه الكريمة الرحيمة قد تجد بين ثيابه ثوباً آخر تكسو به رفيقه المسكين. ولكن القارئ يخطئ أشد الخطأ إن ظن أن الحياة تجرى دائماً على هذا النحو المألوف من المنطق وتلائم دائماً ما ألف الناس من التفكير والتقدير؛ فليست الحياة أقل منى ثورة على الأصول الموضوعة والقواعد المرسومة والخطط المدبرة، وإنما الحياة تمضى كما تريد هى لا كما يريد الناس. وقد راح صالح وأمين من الكتاب مساء ذلك

اليوم . فلم يرعهما حين بلغا ذلك المكان الذى تمتد فيه الخطوط الحديدية من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال ، إلا جماعة مزدحمة تتصايح ويدعو بعضها بعضاً ، ولم يبلغا هذه الجماعة حتى رأيا منظراً راعهما وروعهما : جثة قد شطرت شطرين وألقى عليها ثوب غليظ يستر بشاعتها عن العيون ، وامرأة قائمة تلطم وجهها وتضرب صدرها وتسفح دمعها وتنشر فى الفضاء ضحكاً عريضاً ؛ فأما الجثة فكانت جثة سعيد أكلها القطار ، كما كان يقال فى تلك الأيام ؛ وأما المرأة فكانت خديجة تدفعها الغريزة إلى الجزع ويدفعها الجنون إلى الضحك ؛ وأما صالح فنظر إلى أخيه ونظر إلى أمه وهم أن يقف ولكنه آثر أن يمضى مع رفيقه كأنه لم ير شيئاً . ولست أدرى ما صنع الرفيقان ، ولكنى أعلم أن أبا أمين راح إلى أهله حين تقدم الليل وهو يقول محزوناً : لقد كانت القطر شرهة منذ اليوم ، أكل أحدها سعيداً مع الظهر وأكل الآخر صالحاً مع الليل ، وفقدت « خديجة المعفرتة » ابنيها فى يوم واحد . ثم التفت فرأى ابنه أميناً مذعوراً يكاد ينقد من البكاء ، فمسح على رأسه وقبل بين عينيه وقال له فى صوت رفيق : لن تغدو على الكتاب إذا كان الصبح ، لأنك ستذهب إلى المدرسة الابتدائية فى عاصمة الإقليم .

قال أمين بعد أن تقدمت به السن وأصبح رجلا ذا خطر : ما زلت أرى تلك الجثة قد ألقى عليها ثوب غليظ ، ولكنى أنظر

إلى وجهها فلا أرى وجه سعيد وإنما أرى وجه صالح ، ومع ذلك فلم أر صالحاً حين أكله القطار .

٢

قاسم

كان يسعى فى ظلمة الليل القاتمة ، قد هدأ من حوله كل شىء ، وجثم على الكون سكون رهيب مرهق ، ولو قد رفع رأسه إلى السماء لرأى فيها نقطاً من النور ضئيلة منتثرة ، ولكنه لم يكن يرفع رأسه إلى السماء ، ولم يكن يطرق برأسه إلى الأرض ، وإنما كان يمضى أمامه يمد بصره كأنما يريد أن يخترق به هذه الحجب الكثيفة من الظلام ، بل لم يكن يلتفت عن يمين ولا عن شمال ، وإنما كان أشبه شىء بقطعة من الجماد قد صورت فى صورة إنسان ، ولو قد عدا أو أسرع الخطو لجاز أن يشبه بسهم حى يشق هذه الظلمات المتكاثفة أمامه ، ولكنه لم يكن يسرع الخطو ، كان يسعى هادئاً مطمئناً ، يتردد فى سعيه كأنما تدفعه إلى أمام قوة خفية رفيقة ؛ فهو يسعى سعياً مستأنياً رفيقاً ، لا يتعجل شيئاً ولا يقف عند شىء وإنما يمضى إلى غايته كما يمضى الزمان إلى غايته ، فى أناة ومهل وحزم . ولو كان شاعراً أو راوية

للشعر أو على حظ من ثقافة ، لذكر تلك الأصبع الوردية التى تشير إلى ظلمة الليل بأن تنجلى ، أو لتصور سهماً ضئيلا من الفضة النقية يمضى فى هذه الظلمات المتكاثفة ، فتنهزم أمامه هذه الظلمات متهالكة وتساقط أمامه نجوم السماء فى الأفق الغربى كأنما يدعو بعضها بعضاً إلى الفرار ، ولكنه رأى نور الفجر يمد لسانه الدقيق وراء النهر ، وسمع صوتاً قد أقبل من ورائه فى الجو ضئيلا نحيلا ماضياً أمامه إلى الشرق ، كأنما يريد أن يلقى بالتحية والترحيب ذلك الضوء الضئيل . ثم رأى النور يمتد طولا وينبسط عرضاً حتى أحس كأن الجو كله قد أخذ يمتلئ نوراً وغناء ؛ فأما النور فكان يوقظ الأشياء وينبئها بمطلع الفجر ، وأما الصوت فكان يوقظ الأحياء وينبئهم بأن الصلاة خير من النوم . ولم يذكره شيء من هذا كله بشعر ولا بنثر ، ولم يخرج من أعماق ذاكرته أدباً قديماً أو حديثاً ؛ لأنه لم يكن من هذا كله فى شيء ، ولم يكن يقدر أن شيئاً من هذا كله يمكن أن يوجد أو يخطر لأحد على بال ، وكل ما فى الأمر أن أخاه الشيخ الضرير قد قال له ذات يوم : إنك تسعى فى ظلمة الليل فتطيل السعى ، وتمتد بك الطريق مخوفة غير آمنة ، فاحفظ هذه الآية من القرآن ورددها فى قلبك أو فى لسانك ؛ فإنها تؤمنك من خوف ، وتؤنسك من وحشة . ثم قرأ الآية الكريمة : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن

القلوب » . فكان لايخرج من بيته الحقير المتضائل ساعياً إلى النهر فى ظلمة الليل ؛ إلا ترددت هذه الآية فى صدره تردداً متصلا ، فملأت ضميره أمناً وراحة وهدوءاً ؛ فإذا أحس نبأة من قريب أو من بعيد ، تجاوزت هذه الآية الكريمة قلبه إلى لسانه واندفع بها صوته إلى الفضاء ، فأمن كل كيد وجنب كل مكروه .

وكان فى تلك الليلة يمضى أمامه ، تؤنس قلبه هذه الآية التى تردد فيه. فلما رأى ما رأى ،وسمع ما سمع ، لم يخف شيئاً ، ولم يذكر شيئاً ، وإنما كف عن التلاوة وسأل نفسه مسرعاً : أيمضى إلى النهر أمامه ، أم يرجع إلى المسجد وراءه حتى إذا أدى الصلاة مضى إلى النهر ، فاستخرج منه ما يسوقه الله إليه من رزق ؟ ولم يشك طويلا حين ألقى على نفسه هذا السؤال ، وإنما استدار إلى المسجد فأدى صلاته لم يكلم أحداً ولم يكلمه أحد، ثم استأنف سعيه إلى النهر هادئاً مطمئناً وحيداً ، لا يذكر شيئاً ولا يكاد يفكر فى شىء ، وإنما هو قطعة جامدة قد صورت فى صورة إنسان تمضى أمامها فى أناة ومهل ، لا تنظر فى السماء ولا تنظر فى الأرض ، ولا تلتفت إلى يمين ولا إلى شمال، ولا تحس جلال الليل المنهزم، ولا جمال الصبح المنتصر؛ وإنما خرجت من ذلك البيت الحقير وسعت إلى ذلك النهر العظيم ، تلتمس فيه ما ساقه الله لها من رزق ؛ فلم يكن قاسم

شاعراً ولا راوية شعر ، ولا محبـًّا لجلال الليل وجمال النهار ، بل لم يخطر له قط أن لليل جلالا وأن للنهار جمالا ؛ فلم يكن قاسم إلا رجلا جاهلا بائساً مريضاً ، يلتمس فى النهر ما يستعين به على أن يقيم أوده ويقوت امرأته أمونة ، وابنته سكينة فى بيته ذلك الحقير . ولولا أن قاسماً كان يردد فى صدره هذه الآية ، ويؤدى صلاة الفجر إن أدركته وهو فى طريقه إلى النهر ، ويفكر أيسر التفكير وأهونه فى بيع ما يخرج له من سمك النهر ليقوت نفسه وأهله ، لولا ذلك لكان سعيه بين بيته وبين النهر شيئاً غريزيـًّا خالصاً يشبه سعى النمل والنحل إلى أرزاقها .

وقد كان قاسم عليلا قد نهكه المرض ، وكاد يسل جسمه سلاًّ ، ومن أجل ذلك لم يكن يجد ولا يكد ولا يضطرب فى شؤون الحياة كما يضطرب غيره من الناس ، وإنما كان ينفق أيسر الجهد ليمسك الحياة على نفسه وعلى أسرته الصغيرة . يسعى إلى النهر بين حين وحين ، فإن ساق الله إلى شبكته شيئاً من السمك باعه فى غير مشقة ولا مساومة ، ثم عاد بما يغل ذلك عليه من نقد فاشترى فى كثير من الفتور والسأم ما يصلح أمره وأمر زوجه وابنته ، ثم يعود بذلك كله إلى البيت فيلقيه بين يدى أمونة إلقاء ، ويسعى متخاذلا متهالكاً إلى حصير بال رث قد ألقى فى ناحية من نواحى البيت ، فيمتد عليه ضئيلا نحيلا يكاد السقم يفنيه إفناء . وما يزال على حصيره ذاك لا ينطق

كلمة ولا يفكر فى شيء حتى تهيئ امرأته ما يمكن أن تهيئ من الطعام فتضعه بين يديه ويصيب ثلاثتهم منه ما يصيبون. وما أكثر الليالى التى لم يكن قاسم ينهض فيها للصيد ! يقعد به الداء ، وتثقل عليه العلة فيستقر فى مكانه مثبتاً لا يأتى حركه ولا ينطق بكلمة ، وفى نفسه ما فيها من حسرة وألم إن استطاعت نفسه أن تحس حسرة أو ألماً ؛ وربما كلف نفسه فوق ما تطيق، وحمل جسمه أكثر مما يحتمل ؛ ونهض وهو لا يقدر على النهوض، وسعى وهو لا يقدر على السعى ، وبلغ النهر فوجده كريماً بالقياس إلى غيره من الناس ، بخيلا بالقياس إليه ، فعاد إلى بيته مكدوداً محزوناً ، صفر اليدين ، وألقى إلى امرأته نظرة حزينة مريضة ، ومضى إلى حصيره فامتد عليه لا يقول شيئاً ولا يصنع شيئاً .

هنالك كانت أمونة تخرج متباطئة ، فتلم بهذه الدار أو تلك تعين أهلها من أمرهم على بعض ما يصنعون ، وتعود حين ينتصف النهار ، وقد حملت ما يمسك عليها وعلى زوجها وابنها الحياة ويرد عنهم الجوع .

فى ذلك الصباح خرج قاسم من المسجد بعد أن أدى الصلاة ، فسعى إلى النهر مطمئن القلب هادئ النفس على ثغره ابتسامة ضئيلة شاحبة تريد أن تصور الراحة والرضا فلا تستطيع أن تصور إلا حزناً هادئاً فيه شيء من أمل يسير . وقد صادف

النهر كريماً فى ذلك اليوم ، وساق الله إليه رزقاً حسناً ، فخرجت له شبكته بسمكة عظيمة لم يكد يحس ثقلها ولم يكد يرى طولها وعرضها حتى اضطرب فى قلبه فرح ضئيل ، اتسعت له الابتسامة التى كانت مرتسمة على ثغره ، وذهب عنها ما كان يظهر فيها من شحوب ، ولمع فى عينيه الصغيرتين نور متهالك ضئيل ؛ ثم أحس أنه لن يستطيع أن يحمل صيده إلى أمد بعيد ، فأقام أمامه ينظر إليه حيناً وإلى النهر حيناً ، ويتلفت من حوله حيناً ، ويرفع رأسه إلى السماء بالشكر حيناً ، وينتظر أن يمر به بعض الأصحاء من شباب المدينة فيحمل له هذا الصيد إلى بيت العمدة ؛ فقد استقر فى نفسه منذ رأى هذا الصيد الرائع الجميل أنه لا ينبغى أن يباع فى السوق ، وإنما ينبغى أن يحمل إلى بيت العمدة ، هذا الرجل الموسر الذى يرفق به ويعطف عليه ويوصيه بين حين وحين بأن يحمل إلى داره ما قد يتاح له من صيد حسن .

وكانت فتاة من فتيات الدار قد نهضت مع الصبح قبل أن تستيقظ الأسرة من نومها ، فبدأت بما تعودت أن تبدأ به مع الصباح من كل يوم وأخذت تكنس فناء الدار وترده إلى هيئته التى ينبغى أن يكون عليها ، فتصفف الكراسى فى أماكنها ، وتنفض التراب عن تلك الدكة الطويلة التى كانت تمتد فى صدر الفناء ، وتهيئها لمجلس سيدنا حين

يقبل مطلع الشمس ليقرأ السورة ويشرب القهوة ويتحدث إليها حديثاً يطوله حيناً ويقصره حيناً حسب ما يكون عليه من عجلة أو ريث . وإن الفتاة لفى ذلك وإذا بالباب يطرق طرقاً خفيفاً ، فإذا فتحته رأت قاسماً حزيناً تظهر على وجهه الشاحب آية الرضا والأمل، ومن ورائه غلام يحمل عنه عبئه . فحيا قاسم وحيا معه الغلام ، ثم دخل الرجلان صامتين ووضعا صيدهما العظيم على هذه الدكة فى صدر الفناء . وقال قاسم فى صوته الخافت المريض : ما أشك فى أن السيدة ستسر بهذا الصيد . وهم صاحبه أن ينصرف ، ولكن الفتاة ألقت فى يده شيئاً فقبله راضياً وولى محبوراً . وهم قاسم أن ينصرف ولكن الفتاة أشارت إليه أن أقم ، ثم غابت عنه لحظة وعادت إليه بقليل مما يؤكل وبقدح من القهوة فأكل وشرب ودعا . وهو فى ذلك وإذا سيدنا الضرير يقبل كما تعود أن يقبل فى كل صباح متكلفاً شيئاً من العنف فى دفع الباب أمامه رافعاً صوته بدعاء ربه الستار ، يريد أن ينبئ الأسرة بمقدمه ، حتى إذا أغلق الباب وراءه فى غير رفق سعى إلى دكته فى صدر الفناء ، ولكنه لم يكد يجلس حتى وثب مرتاعاً وجلا ، قد تملكه ذعر ضرير مثله لم يعرف كيف يظهر ولا فى أى عضو من أعضائه يظهر ؛ فوجهه يضطرب ، وجسمه يرتعد ، ويداه تذهبان وتجيئان فى الهواء ، وفمه مفتوح عن أسنان متحطمة وصوته يتردد فى حشرجة بين جوفه وشفتيه .

ويرى قاسم وترى الفتاة معه هذا المنظر ويشهدان هذا الذعر ، فيدفعان إلى ضحك عال متصل . ويثوب سيدنا إلى نفسه وقد أمن بعد خوف وظن أن فتيان الدار وفتياتها قد كادوا له الكيد ؛ حتى إذا علم آخر الأمر أن أحداً من أهل الدار لم يهيئ له كيداً ، وإنما أخطأ قاسم فوضع هذه السمكة فى غير موضعها ، وشغلت الفتاة بالصيد والصائد عن مقدم سيدنا فلم تهيئ له مجلسه ، تضاحك الشيخ الضرير من نفسه ومن قاسم ومن الفتاة ، ثم جلس على كرسى وأبى أن يقرأ السورة حتى يشرب قهوة قبل القراءة لا تغنى عن قهوته تلك التى تعود أن يشربها متى فرغ من الترتيل وقد شرب القهوتين ، ولكنه قال وهو ينهض للانصراف : إن حكمة الله بالغة ، لقد ضحكتما منى وأضحكتمانى من نفسى ، ولكن الله قد أراد بى خيراً ؛ فلن أتكلف لأهلى طعاماً منذ اليوم ؛ أنبئى السيدة يا ابنتى بأن هذه السمكة قد ملأت قلبى رعباً ، وبأنى أنتظر منها نصيبى حين يتقدم النهار ، وما أشك فى أنكم ستتخذون منها ألواناً مختلفة ، وما أرضى أن ترسلوا لى لوناً واحداً وإنما يجب أن أصيب من هذه الألوان جميعاً . وانصرف الشيخ الضرير راضياً عن نفسه مستبشراً بهذا اليوم الذى يسر الله فيه رزقه حسناً دون أن يسعى إليه . والله يرزق من يشاء بغير حساب .

وقد استيقظت الأسرة كلها على ذعر الشيخ الضرير وعلى

تضاحك الصائد والفتاة وعلى قراءة القرآن، فأخذت تستقبل النهار كما تعودت أن تستقبله ، يعمل بعضها ويكسل بعضها ، والصائد فى مكانه لا يبرحه لعله نسى نفسه ، أو لعله ينتظر ثمن صيده ، أو لعله قد أنس إلى الدار لما أكل فيها وما شرب ، وما وجد من تسلية عن همه وسقمه . ومهما يكن من شيء فقد رآه صاحب الدار ، فقال له قولا حسناً ووضع فى يده قروشاً ، وخرج الصائد راضياً مغتبطاً ، ولكنه لم يمض إلى داره وإنما استدار وذهب إلى السوق .

والقارئ يستطيع أن يلاحظ أننا قد انتهينا إلى مفرق من مفارق الطرق فى هذا الحديث ، فأنا أستطيع أن أذهب معه إلى السوق التى ذهب إليها قاسم الصياد . وأنا أستطيع أن أذهب إلى هذه الدور ، التى يلم بها سيدنا كل صباح ليقرأ القرآن ، ويشرب فيها القهوة ويجاذب أهلها أطراف الحديث ، لا يضعف صوته ، ولا يضيق جوفه بما يلقى فيه من أقداح القهوة المرة ؛ ثم أذهب معه إلى الكتاب الذى سينتهى إليه سيدنا حين يرتفع الضحى وتوشك الشمس أن تزول . وأنا أستطيع أن أترك قاسماً يشترى فى السوق ما يشاء ، وأن أترك سيدنا يطوف بالدور وينتهى إلى الكتاب ، وأن أقيم فى الدار لا أبرحها ، وإنما أتبع السمكة إلى حيث نقلت من الفناء واستقرت فى مكانها من المطبخ بين الفرن وهذا الصف الطويل من الكوانين التى تختلف

سعة وضيقاً وارتفاعاً وانخفاضاً، وأشهد إقبال النساء على هذه السمكة العظيمة ، ينظفنها ويقطعنها ويهيئنها لما يراد أن يتخذ منها من ألوان الطعام. ولكنى لن أقيم فى الدار ، ولن أتبع قاسما، ولن أتبع سيدنا، وإنما سأخرج من الدار، وسأنحرف إلى الشمال فأسعى حيناً ، ثم أنحرف إلى الشمال مرة أخرى فأسعى قليلا ، ثم أنحرف إلى يمين فأمضى أمامى خطوات ، ثم أجد فى أقصى هذه الحارة الحقيرة حجرة حقيرة قد اتخذت من الطين، لا من الحجارة ولا من الطوب الأحمر ولا من اللبن، وإنما اتخذت من الطين الذى سويت قطع منه تسوية ما ، وخلط بها شىء من القش والتبن ، ورص بعضها إلى بعض حتى ارتفعت فى الجو ارتفاعاً ما ، وأحاطت بقطعة متضائلة من الأرض ، ثم ألقى عليها شىء من سعف النخل فأصبح لها سقفاً ، ثم نصب فى فرجتها لوح ضيق قليل الطول من خشب رقيق فأصبح لها باباً ، فهذا البيت هو الذى أوثره على السوق وما يعرض فيها من السلع وما يدار فيها من التجارة ، وعلى الدور وما يكون فيها من حديث ، وعلى الكتاب وما يكون فيه من جد ولعب ومن سذاجة ومكر .

أوثر هذا البيت الحقير لأنى أحب أن أجد فيه أمونة وابنتها سكينة وقد استقبلتا النهار بائستين كما استقبلتا الليل بائستين ؛ أحستا قاسماً وهو ينهض متثاقلا يجر قدميه ، ويغلق الباب الضئيل

من ورائه ، وينغمس انغماساً رفيقاً مستأنياً فى ظلمة الليل يرجو أن يبلغ النهر وأن يجد فيه رزقه ورزقهما ، أحستا نهوضه فى جوف الليل ، فلم تنهضا معه ولم تقولا له شيئاً . ولم تنهضان ؟ وما عسى أن تفعلا ؟ ولم تقولان ؟ وما عسى أن تقولا ؟ مضى قاسم وأقامتا ، واشتملهما الليل ساكنتين نائمتين كما اشتمله يقظان ساعياً . وأسفر الصباح لهما ساكنتين قائمتين كما أسفر له ساعياً إلى الرزق . فأما هما فقد نهضتا من نومهما حين أشرقت الشمس : فجلست كل واحدة منهما فى مكانها واجمة لا تدرى ما تصنع ولا تعرف ما تقول ، وظلتا تنتظران قاسماً لعله يعود إليهما بشىء من خير . وقد جرت العادة إذا طال عليهما الانتظار أن تصيبا شيئاً من خبز جاف تبعدان به الجوع عن نفسيهما أو تبعدان به نفسيهما عن الجوع ، وربما خرجتا من البيت فتحدثتا إلى الجارات .

وسكينة فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ، فيها دعة ولين ، وفيها سذاجة تشبه الغفلة ، وعلى وجهها مسحة من جمال توشك أن تروق الناظرين لولا ما يبدو على الفتاة من الضر ، وفى جسمها تناسق وفى قدها اعتدال يظهران للناظر دون أن يتكلف التماساً ؛ فالفتاة عارية أو كالعارية ، لا تستر جسمها إلا أسمال تتكشف هنا وهناك عن حسن أليم .

على أن وجومهما فى ذلك الصباح لم يتصل إلا قليلا . وقد

قالت أمونة لابنتها فجاءة فى صوت فاتر منكسر : ألم تنهضى وتتركى البيت بعد أن خرج أبوك إلى النهر بساعة قصيرة ؟ قالت الفتاة : بلى قد نهضت وخرجت من البيت ، ولكنى عدت بعد لحظة . قالت أمونة : فإنى قدرت ذلك وانتظرت أن تعودى بعد لحظة ، ولكن هذه اللحظة طالت واشتد طولها حتى أشفقت عليك من بعض الشر ، وحتى هممت أن أخرج فى التماسك ولكنى أكرهت نفسى على البقاء مخافة أن يفطن إلينا الجيران ؛ وما زلت أنتظرك وأنتظرك حتى أسفر الصبح ، وإذا أنت تقبلين مترفقة وتدخلين متلصصة وتندسين فى مضجعك حريصة على ألا أحس مقدمك كما كنت حريصة على ألا أحس انسلالك من البيت ؛ فإلى أين ذهبت ؟ وماذا كنت تصنعين ؟ وقد سمعت سكينة حديث أمها مرفوعة الرأس أول الأمر ، ولكنها لم تلبث أن انخفض رأسها فجأة ، كأنما عجزت الأعصاب والعصلات أن تمسكه فانكب نحو الأرض انكباباً ؛ ولبثت الفتاة صامتة لا تقول شيئاً ، جامدة لا تأتى حركة . وقد أعادت أمها عليها المسألة مرة ومرة ، فلم تظفر منها برجع الحديث. هنالك تنمرت أمونة وظهر فى وجهها شىء من الجد لم يلبث أن استحال إلى غضب منكر عنيف ، وقالت لابنتها فى صوت مكظوم : ستنبئينى إلى أين ذهبت وماذا كنت تصنعين ؟ ثم انحرفت بنصفها الأعلى إلى يمين وتناولت عوداً يابساً من سعف

النخيل كانت تصطنعه فى تقليب الخبز وإنضاجه، ثم استقبلت الفتاة ملوحة بهذا العود اليابس، وهى تقول لها فى صوتها المكظوم: ستنبئينى أين كنت وماذا كنت تصنعين ؟

ولم تقل الفتاة شيئاً ، ولكن العود أخذ يقع ما بين كتفيها فى عنف شديد وثبت له الفتاة كأنما دفعها إلى الوثوب لولب فى الأرض ، أو جذبها إلى الوقوف سبب فى السقف ؛ على أن وقوفها لم يطل ، فقد أخذ العود يصيب من جسمها ما شاءت المصادفة الغاضبة ، وإذا الفتاة تجثو وقد جمعت يديها إلى وجهها وهى تتلوى من الألم ، تدافع شهيقاً يريد أن ينطلق ويكاد أن ينفجر عنه حلقها . ثم يستأثر الغضب بأمونة ؛ فإذا هى لم تبق امرأة، وإنما استحالت إلى جنية ثائرة، وقد ألقت العود من يدها ووثبت بسرعة وخفة ، فكبت الفتاة على وجهها وجمعت شعر البائسة بين يديها ، وجعلت تجذب الفتاة من شعرها فى غير رفق وتدفع بقدميها وجهها فى غير نظام . وقد انفجر صوت الفتاة عن صيحة منكرة ، فتلقى أمونة نفسها على ابنتها وتضغط بيدها على فم الفتاة وتنبئها فى صوتها المكظوم دائماً بأنه الموت إذا لم تكظم صوتها ولم تضبط نفسها ، ولم تنبئها فى هدوء وصدق إلى أين ذهبت ، وماذا صنعت حين انسلت من البيت فى ظلمة الليل .

وقد ضاق صدر الفتاة لثقل ما حملت من جسم أمها ولهذا

الضغط المتصل على فمها ، فاستيقنت أو كادت تستيقن أنه الموت ، ولكنها جاهدت جهاداً عنيفاً حتى تخلصت من ثقل أمها واستوت جالسة ، وظهر فى وجهها هدوء حازم عنيد ، ودفعت يد أمها عن فمها وقالت فى صوت مكظوم كصوت أمها ولكنه ينم عن التحدى والعناد : تريدين أن تعلمى إلى أين ذهبت وماذا كنت أصنع حين انسللت من البيت فى ظلمة الليل ؟ فاعلمي إذن أنى لقيت زوج عمتى غير بعيد من مزرعته ، وأقمت معه ما أقمت ، ثم رجعت حين كاد الصبح أن يسفر . أعلمت الآن ما كنت تجهلين ؟ أراضية أنت بما عملت ؟

وجمت أمونة شيئاً ثم قالت مستخذية : ومتى لقى الفتيات أزواج عماتهن فى جنح الليل ؟ إنك لتلقينه متى شئت فى وضح النهار . قالت الفتاة : ألقاه فى وضح النهار وألقاه فى ظلمة الليل ؛ ذلك شأنه وشأنى ، وما أنت وذاك ؟ فإنه لا يعنيك من قريب ولا من بعيد . هنالك استأنف العود تمزيقه لجسم الفتاة ، ولكن الفتاة قالت لأمها بصوت تكلفت كظمه : ستكفين يدك عنى أو أستغيث بالجيران !. قالت أمونة وقد سقط العود من يدها : الجيران؟ يا للفضيحة ! يا للعار ! ثم انحنى أعلاها على أسفلها وجعلت تنتحب غير جاهرة بالنحيب ؛ وظلت الفتاة فى مكانها واجمة ساهمة كأنها قطعة من المرمر ، على أنها لم تلبث أن فرقت بين أجفانها فأنهل على وجهها دمع غزير !

وفى القارئ حب للاستطلاع أقل ما يوصف به أنه يضايق الكاتب ويأخذ عليه الطريق ، ويضطره إلى الوقوف حين كان يؤثر المضى فى كتابته ، أو يضطره إلى الاستطراد حين كان يفضل ألا يتجاوز الموضوع الذى يعرضه أو يقول فيه . والقارئ لا يكفيه ما أنبأته به من أن هذه الفتاة قد تغفلت أمها وانتهزت غيبة أبيها وانسلت من بيتها فى ظلمة الليل، واعترفت لأمها آخر الأمر وبعد ما ذاقت من عذاب بأنها خرجت لغيٍّ لا لرشد ، وبأن قد كان بينها وبين زوج عمتها إثم بغيض .

القارئ لا يكتفى بهذا ، وإنما يحب أن يعرف كيف نشأت هذه الصلة المنكرة بين فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ورجل قد جاوز الشباب وهو زوج عمتها . ولولا أنى أرفق بالقارئ ولا أحب أن أشق عليه ولا أن أرده خائباً حين يحب الاستطلاع ، لمضيت فى الحديث كما بدأته، ولأبيت الانحراف إلى نشأة هذه الصلة البغيضة لأن الحديث عنها بغيض ؛ ولكن لا بد مما ليس منه بد ، فمن حق الكاتب أن يذهب ما شاء من المذاهب فى كتابته، ولكن من حق القارئ أيضاً أن يفهم فى وضوح وجلاء ما يقدم إليه الكتاب من المقالات والفصول . وقد عرف القارئ أن قد كان لقاسم أخ شيخ ضرير أقرأه آية كريمة من القرآن تؤمنه من خوف وتؤنسه من وحشة ، فقد ينبغى

أن يعرف القارئ الآن أن قد كانت لقاسم أخت فاتنة لعوب ، خلبت عقول كثير من الشباب حين واتاها الحظ وابتسمت لها الدنيا واستقامت لها الأمور ، ثم تولت عنها الدنيا كما تتولى عن كثير من الناس ، وأصاب جسمها ذبول ، وألم بجمالها ذواء حين دخلت فى الكهولة ودنت من الشيخوخة . وقد كانت خليقة أن تضطر إلى بؤس كبؤس أخيها الصياد أو أخيها الضرير ، لولا أنها صادفت الحاج محموداً ، وكان رجلا يقيم فى طرف من أطراف المدينة ، فيه بقية من قوة وفضل من شباب ويملك قراريط من الأرض يستغلها فى استنبات البقول ؛ وقد لعبت الأيام بالحاج محمود كما لعبت بتلك المرأة ، ثم أحس حاجة إلى شيء من الاستقامة ، فاصطنع الهدوء وتكلف التقوى وحافظ على الصلوات ، ثم سعى إلى الحج وعاد وعليه زى من وقار ومسحة من نقاء ، فاتخذ هذه المرأة له زوجاً واستقر فى حياة مطمئنة لا يظهر أحد منها على بأس . وكأن غريزته كانت أقوى من إرادته ، وكأن ميله إلى اللهو كان أقوى من طموحه إلى التقوى ، وكأن دنو امرأته من الشيخوخة أو دنو الشيخوخة من امرأته قد حول نفسه عن القناعة والرضا إلى المجانة والطمع ، فكان يمشى فى المدينة زائغ الطرف يدير عينه يميناً وشمالا ، ويقصر بصره إلى هنا ويمد بصره إلى هناك ، وكان كل شيء فى تقلب وجهه واضطراب بصره يدل على أن فى نفسه طموحاً إلى الشر

ونزوعاً إلى ما لا يستحب من الأمر . وكان قاسياً على أخى امرأته، يرمقه فى ازدراء ويتحدث عنه فى استخفاف ، ولا يمد إليه يداً بالمعونة ولا يظهر إشفاقاً عليه مما كان يبهظه من الفقر والبؤس والداء ؛ ولكنه رأى ابنة هذا الرجل فتاة كاعباً تستقبل الحياة فى قوة وجمال وفى بؤس وشقاء أيضاً ، فلم يرق لبؤسها ولم يرحم شقاءها ، وإنما اشتهى جمالها وطمع فى محاسنها ، وابتغى إليها الوسائل . وما أكثر وسائل الإغراء للذين يبهظهم الشقاء ! وقد رأى هذه الفتاة الجميلة البائسة تنظر ذات يوم نظرة فيها كثير جداً من الأمل إلى رجل من هؤلاء الباعة الذين كانوا يطوفون فى المدن والقرى يحملون هذه السخافات التى تطمح إليها نفوس البائسين من أهل المدن والقرى ، يحملون حقيبة فيها هذا الصمغ الذى يمضغ فى الأفواه ويسميه أهل القرى « لباناً » ويسميه المترفون من أهل المدن « لادناً » ، ويحملون حقيبة أخرى فيها صنوف من الخرز وضروب من الخواتم والأساور قد اتخذت من المعدن الرخيص . ونساء الريف يكلفهن بهذه السخافات ، يتخذن من الخرز عقوداً، ويزين أيديهن ومرافقهن بهذه الخواتم والأساور ، ويتجملن بمضغ اللبان يدرنه فى أفواههن ويحدثن فى مضغه بين حين وحين صوتاً يفتن به الرجال المكتملين والشباب الناشئين . وقد رأى الحاج محمود تلك الفتاة البائسة ذات الجمال البارع وقد تعلقت نفسها بشىء من هذه

السخافات بين يدى رجل من هؤلاء الباعة قد أطاف به النساء والفتيات من أهل المدينة يأخذن منه سخفه الرخيص ويدفعن إليه نقدهن القليل . وسكينة تنظر وتشتهى ولكنها لا تستطيع أن تأخذ شيئاً ؛ لأنها لا تستطيع أن تدفع شيئاً ؛ فرق الحاج محمود لهذه الفتاة ، أو مال قلبه إلى هذه الفتاة ، فاشترى من سقط المتاع هذا شيئاً قليلا أدى له ثمناً ضئيلا وملأ قلب الفتاة به فرحاً وأفعم به نفسها سروراً ، وأفاض على وجهها بهجة زادتها حسناً إلى حسن وروعة إلى روعة . ومنذ ذلك اليوم وقع فى قلب الحاج محمود لهذه الفتاة الغافلة حب أثيم . ومنذ ذلك اليوم جعل الحاج محمود يسعى بالخير بين حين وحين إلى هذه الأسرة البائسة ، بدأ بالحديث الرفيق، وثنى بالمعونة اليسيرة ، واختص الفتاة بعطف كاد يتصل لولا أن الحاج محموداً كان يحتاط ويتحفظ ويخشى الريبة . وكان قاسم وامرأته يتلقيان هذا الود الجديد فى تردد بين ما يحمل إليهما من خير وما يثير فى نفسيهما بعض الشك ؛ ولكن الحاجة كانت أقوى من الحيطة ؛ والشىء الذى ليس فيه شك هو أن الفتاة قد اطمأنت إلى هذا الرجل ووثقت به ، وتعلقت نفسها بما كان يطرفها به بين حين وحين من هذه الطيبات المتواضعة ؛ فأكثرت التردد على دار عمها ، ثم اتصلت المودة بينها وبين هذا الرجل الذى كانت تسميه عمها .

وهنا ليس يحتاج القارئ فيما أظن إلى أن أمضى به فى هذا الحديث البغيض إلى غايته ، فهو يستطيع أن يبلغها وحده . وأحسبه قد أطال الانتظار لقاسم هذا الذى ذهب إلى السوق وفى يده أو فى جيبه قروش العمدة . فلينظر إليه إن شاء عائداً من السوق قد امتلأت يداه بالخير وظهر على وجهه الشاحب حبور كئيب ، وأقبل يسعى إلى بيته الحقير متباطئاً ثقيل الخطو ، وفى نفسه شىء من رضا ، فسيطعم امرأته وابنته ما لم تتعودا أن تصيبا منه إلا نادراً حين يكرم النهر أو حين يتصدق الموسرون . ومهما يبلغ الفقر بالناس، ومهما يثقل عليهم البؤس، ومهما يسىء إليهم الضيق ، فإن فى فطرتهم شيئاً من كرامة تحملهم على أن يجدوا حين يأكلون مما كسبت أيديهم لذة لا يجدونها حين يأكلون مما يساق إليهم دون أن يكسبوه أو يحتالوا فيه ؛ فقد كان قاسم فى تلك الساعة يشعر بشىء من هذه الكرامة ، ويريد أن يعتد بنفسه ، لولا أنه كان أشد بؤساً وتضاؤلا وإذعاناً للعلة من هذا الاعتداد ؛ وهو على ذلك كان يسعى متباطئاً ثقيل الخطو ، ولم يكن يسوءه أن يلحظ الجيران كلما دنا من بيته ، وأن يروا ما يحمل من طيبات السوق ، وأن يقولوا فى أنفسهم : لقد حسن صيد قاسم منذ اليوم ، وسينعم مع امرأته وابنته بطعام لذيذ . يقول بعضهم ذلك لنفسه مع كثير من الرفق والإشفاق ، ويقول بعضهم ذلك لنفسه مع

كثير من الحسد والغيظ . ويرى قاسم هذا كله فى لحظ العيون واضطراب الوجوه ، ويكاد قاسم يجد فى نفسه الرضا عن رفق الرفيق وحسد الحسود ؛ ولكنه يبلغ البيت ويدفع الباب الدقيق الضئيل ويخطو وقد جعل الدم يصّاعد إلى وجهه ، وجعلت عيناه تبرقان وشفتاه تنفرجان ، وهم صوته الخافت أن يصبّح أهله بالخير ، وهمت يداه المتهالكتان أن تضعا بين يدى زوجه ما حملا إليها من طعام ، وهم أن يداعبها فى بعض الحزن . ولكنه يخطو وينظر ، فإذا امرأة تساقط دموعها غزاراً وهى جامدة هامدة ، وإذا فتاة تنتحب ، وتدافع شهيقاً لا تحب أن يسمع ؛ وإذا قاسم واجم أول الأمر ، ثم سائل بعد ذلك ، ثم مكرر المسألة ، وإذا امرأته ترد عليه فى صوت مختنق منقطع بكلمات تقع من قلبه البائس موقع الجمر ، وإذا يداه تسترخيان ، وإذا هذا الخير الذى كان يحمله حفيًّا به حريصاً عليه ، يسقط إلى الأرض فى غير نظام ، وإذا عيناه تنطفئان ، وإذا شفتاه تلتقيان ثم تمتدان ، وإذا هو يسعى إلى حصيره ذاك البالى فيجلس عليه متهالكاً ، ثم يمتد وقد نهكه ما أصاب جسمه النحيل وقلبه العليل الضئيل من جهد ، وإذا امرأته تسمع صوتاً خافتاً يأتى من بعيد جدًّا ، وهو يقول : لو رزقنا الله مكانها غلاماً لم نتعرض لهذا الخزى ، ثم يعيد : لهذا الخزى . ثم ينقطع الصوت حيناً ثم يعود أشد خفوتاً وأعظم بعداً وهو يقول :

ما ينبغي للفقراء أن يلدوا البنات ! ثم ينقطع صوته فلا تسمعه امرأته سائر النهار، ليس هو نائماً وليس يقظان، وإنما هو شيء بين ذلك . وقد همت حين تقدم النهار أن تنظر إلى هذا الطعام وتحاول تهيئته ، ولكنها تنظر إليه ثم تعرض عنه ، وتظل فى مكانها هامدة جامدة، تنهل دموعها حين تجود عيناها بالدموع، وتنقطع دموعها حين تجمد عيناها من البكاء . والفتاة ملقاة فى مكانها لا هى بالحية ولا بالميتة ، وإنما تأخذها رعدة بين حين وحين ثم يشتمل عليها الخمول والجمود . ولم ير الجيران فى ذلك اليوم أمونة تخرج لالتماس الحطب ، ولم ير الجيران فى ذلك اليوم دخاناً من ذلك البيت ، ولم يشم الجيران فى ذلك اليوم رائحة الطعام الذى تنضجه النار ، وقد كانوا مع ذلك يتوقعون هذا كله حين رأوا قاسماً يروح إلى داره وقد امتلأت يداه بالخير .

وسعت الشمس إلى مغربها متباطئة ، وأقبلت ظلمة الليل فنشرت أرديتها السود على كل شىء ، وجثم الليل على المدينة ثقيلا مرهقاً ؛ فاضطر الناس إلى مضاجعهم وفرض الهدوء والصمت على كل شىء ، وانتشرت فى السماء نقطة ضئيلة من النور ، ونهض من فراش قاسم شخص ضئيل يوشك أن يكون شبحاً، فانسل من البيت لم يلتفت إلى أحد ولم يلتفت إليه أحد، وغمس نفسه فى ظلمة الليل وجعل يمضى فيها متباطئاً وإن أراد

الإسراع ، متثاقلا وإن كان فى نفسه خفيفاً . مضى أمامه لا يرفع رأسه إلى السماء ، ولا يلتفت إلى يمين ولا إلى شمال ، فقد نفذت ظلمة الليل إلى نفسه فأصبح ضميره فحمة قاتمة ليس لها حظ من صفاء ، وقد نفذ سكون الليل إلى قلبه فلم يتردد فيه صدى ، ولم تخطر له الآية الكريمة : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ، ولم يشعر فى الوقت نفسه بشىء من خوف لأنه قد استحال كله خوفاً .

وقد تجاوز المسجد فى طريقه إلى النهر ، وأقبل أمامه من الشرق ضوء الفجر ضئيلا يمتد طولا وينبسط عرضاً ، وأقبل وراءه من المسجد صوت المؤذن يمتد طولا وينبسط عرضاً ، وامتلأ الجو من حوله ضياء يوقظ الأشياء، وغناء يوقظ الأحياء ويدعو الناس إلى الصلاة؛ ولكن قاسما لم ير ضياءً ولم يسمع غناءً ، قد أظلمت عيناه وسدت أذناه ، ومضى أمامه كأنه السهم الكليل الفاتر تدفعه قوة كليلة فاترة ، وجعل يمضى أمامه ويمضى مترفقاً ، حتى أحس أنه يخطو فى فراغ ، ثم أحس برداً يأخذه من جميع أقطاره ، ثم لم يحس شيئاً ، ولم يحسه شىء ، وإنما مضى إلى الغيب كما تمضى فى كل لحظة أشياء كثيرة إلى الغيب .

وما من شك فى أن الشمس قد أشرقت بعد ذلك بنور

ربها ، وفى أن المدينة امتلأت حياة ونشاطاً ، وفى أن الناس اضطربوا فى أعمالهم بما يضطرب فى قلوبهم من نزعات الخير والشر ، وفى أن أمونة وابنتها قد انتظرتا أن يعود إليهما قاسم كما تعودتا أن تنتظرا كلما سعى إلى النهر من آخر الليل ؛ ولكنهما أطالتا الانتظار ، ولم تظفرا منه بشيء .

وقد يحب القارىء أن يعرف كيف عبث بهما الأمل ، وكيف بطش بهما اليأس ،وكيف لعبت بهما صروف الأيام؛ ولكن القارىء ليس فى حاجة إلى أن أقص عليه هذه الخطوب؛ فأيسر شيء عليه أن ينظر إلى هذه الحياة الصاخبة من حوله، فسيرى فيها « أمونات وسكينات » كثيرات لا يحصين بالمئات ولا بالألوف ،وإنما يحصين بمئات الألوف وقد يحصين بالملايين، تطلع الشمس عليهن كل يوم مشرقة بنور ربها ، ولكنها لا تحمل إليهن رضاً ولا غبطة ولا أملا فى الرضا أو الغبطة ، ويقبل الليل عليهن مظلماً قاتم الظلمة يزدان بهذا القمر فى أطواره المختلفة ، ويزدان بنقط النور هذه التى تنتثر فى السماء؛ولكنه لا يحمل إليهن راحة ولا أملا فى الراحة ، وإنما يدفعهن إلى نوم ثقيل بغيض كريه يشقين فيه بأحلام بغيضة تصور ما يشقين به فى النهار من حياة بغيضة ، لا تحفل الشمس بهن حين تطلع ، ولا يحفل الليل بهن حين يقبل . ومتى حفل الليل والنهار ببؤس البائسين ونعيم الناعمين ! ولكن الغريب أن الأحياء من

الناس الذين أتيحت لهم قلوب تشعر ، وعقول تفكر ، ونفوس تميز بين الخير والشر ، ونعيم كان خليقاً أن يلفتهم إلى جحيم البؤس ، هؤلاء الناس يمضون حياتهم كما يمضى الليل والنهار إلى غايتهما ، لا يحفلون بأمونة ولا بسكينة ولا بقاسم ، شغلتهم أنفسهم عن كل شيء وعن كل إنسان .

٣

خديجة

لم تنزل من السماء كما تنزل الملائكة رحمة وروحاً على الأرض ، ولم تخرج من النهر كما كانت العذارى الحسان من بنات الماء يخرجن فى الزمان القديم من الجداول والأنهار ومن العيون والينابيع ، ولم يحملها إلينا السحاب ، ولا أرسلها إلينا نجم من النجوم ؛ وإنما نشأت فى القرية ، وفى أسرة بائسة شقية من أسرها كما ينشأ غيرها من عشرات العذارى ، بل من مئاتهن وألوفهن فى المدن والقرى دائماً ؛ ولكنها امتازت من أترابها بوجه كأن الشمس ألقت رداءها عليه نقىّ اللون لم يتخدد . ولم يكن أحد يعرف من أين جاءت بهذا الوجه السمح الطلق المشرق النقى ؛ فقد كان وجه أبيها جهماً غليظاً قد احتفرت فيه الأخاديد احتفاراً ، وفعل به البؤس والشقاء وشظف العيش

الأفاعيل ؛ وكان وجه أمها صورة رائعة للقبح ، إن جاز أن تكون للقبح صورة رائعة؛ وكان ضيق الحياة وخشونة العيش ، وهذه الضرورات المحرجة التى تدفع البائسين من العمل إلى ما لا يحبون ، وترضيهم آخر الأمر عما يكرهون — كان هذا كله قد غشّى وجهى هذين الأبوين بغشاء صفيق مؤلم من الكآبة ، والذلة ، والحزن ، والغفلة والغباء .

ولم تكن تمتاز بإشراق الوجه ونقائه فحسب ، وإنما كان لإشراق وجهها ونقاؤه مظهراً لصورة رائعة بارعة من الجمال والحسن، قد أسبغت على جسمها كله ، فكان شيئاً رائعاً متقناً كأنما صنع فى تمهل وتأنق وأناة ، كأحسن ما يتمهل المثال البارع ويتأنق ويستأنى بعمله فيخرج تمثاله آية فى الروعة وفتنة للعيون والقلوب جميعاً .

وكان صوتها ، إذا تكلمت ، رخصاً عذباً صافياً ممتلئاً لا تكاد الأذن تسمعه حتى يحضر فى النفوس هذا الوقت القصير بين انطلاق الفجر فى ظلمة الليل كأنه السهم ، وإشراق الشمس على الأرض حتى تملأها جمالا ونوراً .

كان صوتها يحضر فى النفس هذا الوقت القصير الذى يكون بين انطلاق الفجر وإشراق الشمس ، والذى يترقرق فيه نسيم رقيق عليل ، ويسقط فيه الندى كأنه تحية حلوة ملؤها الحياة والنشاط قد أرسلتها السماء إلى الأرض ، وتستيقظ فيه

الطبيعة نشيطة متكاسلة مع ذلك : تتغنى الطير وتحف الأوراق وتهف الغصون ، ويهمس الضوء الفاتر إلى الأرض أن أفيق وتأهبى ، فقد أوشك موكب الشمس أن يلم .

كان صوتها يحضر فى النفس هذا كله إذا تكلمت ، ولم تكن تتكلم إلا قليلا ، وكان صوتها ذاك الرخص العذب الصافى يلائم وجهها المشرق النقى ، وخلقها الرائع السوى ؛ فكان شخصها أشبه شىء بآية من آيات الموسيقى التى لا تلذ السمع وحده ، وإنما تلذ كل ما فى الإنسان من ملكات الحس والشعور والتفكير . وكان الناس يتساءلون ولا يكفون عن التساؤل : من أين جاء هذان الأبوان اللذان آثرتهما الطبيعة بالدمامة والقبح ، بهذه الآية التى استأثرت بأرق الحسن وأنقاه ؟ وكان فقيه القرية إذا ألح الناس فى التساؤل أمامه ، تلا عليهم هذه الآية من القرآن ، منكراً عليهم تساؤلهم والحاحهم فيه : « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب » . ثم يقول لهم : ويحكم ! ما تنكرون أن يهب الله الجمال للقبح وهو يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ! أنكم لا تنكرون أن ينشق الليل المظلم عن النهار المبصر ، ولا أن يهزم ضوء النهار أمام ظلمة الليل؛ فلم تنكرون أن يهب الله خديجة هذه لأمها محبوبة ولأبيها شعبان ؟

وكانت محبوبة هذه امرأة نصفاً ، تطوف بأهل القرية تصنع لهم الخبز ، وتصنع لهم من الخبز نوعاً خاصاً هو هذا الذى يتخذ من الذرة رقيقاً مستديراً واسعاً ، لا تحسن أن تصنع غيره من خبز القمح ؛ فكنت تراها فى آخر الليل ملمة بهذه الدار أو تلك تهيء العجين ؛ وكنت تراها فى أول النهار جالسة أمام الفرن ، تدير بيدها السريعة الصناع قطع العجين ، فتسويها فى سرعة مدهشة على الشكل الذى ينبغى أن يسوى عليه ، ثم تقذفها إلى النار قذفاً خفيفاً رفيقاً ، ثم تستردها من النار وقد منحتها النضج الذى يجعلها سائغة فى الأفواه والحلوق والبطون ؛ وكنت تراها حين يرتفع الضحى ويوشك النهار أن ينتصف عائدة إلى بيتها ذاك الوضيع الحقير ، وقد حملت أجرها طائفة من هذا الخبز تضيفها إلى طائفة ، وتعيش عليها مع زوجها وبنيها وبناتها ، ويقنعون بهذا الخبز فى كثير من الأيام ، وقد يضيفون إليه هذا الإدام أو ذاك ، إن ساق الله إلى شعبان رزقاً ، أو تفضلت بعض الأسر الموسرة على هذه الأسرة المعسرة بشىء من طعام ؛ فإن لم يكن هذا ولا ذاك فالخبز وحده ، أو الخبز مع شىء مما تنبت الأرض وتصل إليه الأيدى القصار من البصل والفجل وهذه الأعشاب التى لا يتحرج البائسون من أن يستعينوا بها على الحياة .

وكان شعبان رجلا مقتَّراً عليه فى الرزق ، قد ورث عن

أبيه مهنة لا تغنى من جوع ؛ كان بناء متواضعاً، لا يقيم الدور التى تتخذ من الحجر والآجر واللبن، وإنما يقيم البيوت والحجرات التى تتخذ من الطين الغليظ : تراب يجمع ويصب عليه الماء ، ويخلط به بعض الهشيم ، ثم تسوى منه قطع متلائمة أو غير متلائمة يضاف بعضها إلى بعض لتمتد فى الفضاء وترتفع فى الجو ، وتدور أو تستطيل حول رقعة ضيقة من الأرض ، حتى إذا ارتفعت فبلغت القامة أو أقل من القامة ، مد عليها شىء من سعف النخل فاستقام منها بيت أو حجرة يأوى إليها البائسون من أهل القرى ، فتقيهم أيسر ماينبغى أن يتقوا من عاديات الطبيعة .

وأهل القرى لا يبنون هذه البيوت فى كل يوم ولا فى كل أسبوع ، وإنما يبنونها حين يتاح لهم البناء ، وحين تأذن لهم الظروف أن يتخذوا البيوت والحجرات ، أو أن يقيموا الغرفة فوق هذه الحجرة أو تلك ، أو فوق هذا البيت أو ذاك .

فكان يعمل اليوم أو اليومين أو الأيام القليلة ، ليظل بعد ذلك متعطلا أياماً أو أسابيع . وكان يوسع على أهله بهذه القروش التى يغلها عليه عمله من حين إلى حين ، يكسوهم إن استطاع لهم كسوة ، ويمتعهم بقليل من الطيبات إن طالت يده إلى قليل من الطيبات ، فلم يكن بد من أن يعمل الصبية حين شبوا ليقوتوا أنفسهم حيث يعملون ، وليرجعوا على أهلهم بفضل ما يساق إليهم من الرزق .

وكانت خديجة كاعباً، تعمل فى دار من دور أهل اليسار، تقبل مع الصبح المسفر فتنفق ما تملك من نشاط فى خدمة أهل الدار، وتعود مع الليل المظلم إلى بيت أبويها فتنفق الليل فيه. وكانت راضية بهذه الحياة باسمة لها على شيء من حزن كان يستقر فى قلبها ويتغلغل فى ضميرها، ولا يبين عنه لسانها حين ينطق ولا وجهها حين يأخذ ما يأخذ من الأشكال. كانت تفكر من غير شك فى بؤس أبويها وإخوتها الصغار، ولكنها لم تكن تعبر عن هذه الخواطر الكئيبة بلفظ أو لحظ أو حركة، إنما كانت تخفى حزنها كما يخفى البخيل كنزه؛ وربما نمت بهذا الحزن نغمة ضئيلة مرة، تغمر هذا الصوت الممتلئ العذب فتترك فى نفوس السامعين أثراً غريباً؛ وربما نمت بهذا الحزن سحابة خفيفة رقيقة تمر بهذا الوجه المشرق الجميل، مراً سريعاً لا يتيح للذين يرونها أن يفكروا فيها فضلا عن أن يسألوا عنها. كانت حياتها فى تلك الدار بهجة متصلة ورضاً مقيما، تقطعها بين حين وحين وفى لحظات قصار جداً هذه النميمة التى تهم أن تنبئ بالحزن، ولكنها تذوب قبل أن تنبئ بما همت أن تنبه إليه.

وكانت ربة الدار محبة لخديجة رفيقة بها، عطوفاً على أهلها، تبرهم كلما سنحت لها الفرصة، وتحسن إليهم كلما أتيح لها الإحسان؛ وكانت كثيراً ما تدعو محبوبة إلى الدار وتكلفها

بعض العمل اليسير الهين أو الغليظ العنيف، تأجرها على ذلك لا بالقروش التى تضعها فى يدها، ولكن بالثوب تهديه إليها من ثيابها هى الخليعة ، أو من ثياب أبنائها وبناتها ، أو من ثياب زوجها ، وبالطعام تكلفها حمله إلى زوجها وبنيها ، وبالطرف تطرفها بها فى أيام الأعياد وفى أيام السعة والرخاء ، حين تلم أيام السعة والرخاء ؛ ولكنها لم تكن تقف عند هذا النوع من البر ، وإنما كانت تحرص على أن يكون رفقها بالأسرة متجدداً ، وعطفها عليها متصلا .

وفى ذات يوم سمعت ربة الدار فى فناء دارها من نحو حظيرة الماشية صياح امراة تصيح ، وبكاء فتاة تبكى ، وصوت عصاً تلهب جسما بضرب متصل ،وصراخ صبية يجأرون بالشكاة، فتخرج من حجرتها مسرعة ، ولا يروعها إلا محبوبة قد ألقت ابنتها على الأرض وأخذت بشعرها الطويل الجميل تجذبه بإحدى يديها جذباً عنيفاً ، ويدها الأخرى ترتفع وتنخفض بغصن يابس من هذه الغصون التى تتخذ لإدارة الخبز فى النار واستخراجه منها ، وغير بعيد من هذا المنظر الأليم طبقان من خزف قد نحيا ناحية ، ومحبوبة تنظر إليهما وتسأل عنهما الفتاة ، فى حين تمعن يدها فى جذب الشعر ، وتمعن الأخرى فى رفع العصا وخفضها .

قالت ربة الدار منكرة : ماذا أرى وماذا أسمع ! ثم

أسرعت إلى محبوبة فردتها عن الفتاة وانتزعت من يدها العصا ، وإلى الفتاة فأنهضتها وفرقت بينها وبين أمها ؛ ولكن محبوبة أمعنت فى بكاء متصل فيه شهيق وزفير ، ثم لم تلبث أن أخذتها نوبة عصبية ، من هذه النوبات التى تأخذ أمثالها من النساء حين يمعن فى الشهيق والزفير ، حتى اضطرت ربة الدار إلى أن تنضحها بشيء من ماء لتردها إلى الاتزان والسكون .

فلما ثابت محبوبة إلى نفسها واستنبأتها ربة الدار عن خطبها وخطب الفتاة ، سمعت منها كلاماً لم يكد يبلغ نفسها حتى انهلت دموعها له غزاراً : سمعت منها أنها وجدت فى زاوية من زوايا بيتها هذين الطبقين ، فلم تشك فى أن ابنتها تخون سادتها وتسرق ما فى دارهم من متاع . لم يبق إذن إلا أن تسرق ، فتخون من يحسنون إليها وإلى أهلها ، ويتيحون لهم حياة فيها شيء من نعمة ورضاً ! لم يبق إذن إلا أن تسرق فتدخل الشر على أهلها وتزيد عيشهم ضيقاً إلى ضيق ، وحياتهم شقاء إلى شقاء ؛ من أجل هذه السرقة التى استكشفتها قُتّر عليهم فى الرزق ، فردت هى عن بعض الدور التى كانت تصنع فيها الخبز ، ولم يدع زوجها إلى بناء البيوت ولا إلى تسوية الطوب منذ وقت طويل . لقد كنا نسأل عن مصدر هذا الشقاء ، فقد عرفناه الآن ؛ إن لنا ابنة سارقة تخون سادتها وتختلس ما عندهم من متاع !

قالت ربة الدار وقد كفكفت عبراتها : على رسلك أيتها

المرأة ! فإن ابنتك لم تسرق هذين الطبقين ، وإنما كلفتها أن تحملهما إليكم أمس مع الليل ، وفيهما شيء من طعام ، كدأبي معها دائماً ؛ وما أرى إلا أنها قد نسيتهما حين أقبلت على عملها مع الصبح . قالت محبوبة : فإنها لم تحمل إلينا أمس طعاماً كما أنها لم تحمل إلينا طعاماً قط . وانجلت القصة بعد قليل ، وتبين أن خديجة كانت تستحيي أن ترفض ما تكلفها سيدتها أن تحمل من الطعام إلى أهلها ، وكانت تستحيي أن تحمل إلى أهلها هذا الطعام ؛ فكانت إذا خرجت بالطبق أو الأطباق تخففت مما فيها ، تهديه إلى الفقراء إن وجدت فى طريقها الفقراء ، وتلقيه إلى الكلاب إن لم تجد فى طريقها إلا الكلاب ، وتلقيه فى عرض الطريق إن لم تجد فى طريقها ناساً ولا كلاباً ؛ ثم تضع الأطباق فى زاوية من زوايا البيت ، فإذا أصبحت عادت بها إلى الدار باسمة ظاهرة الرضا ، كأنها قد وسعت على أهلها بما حملت إليهم من رزق . ولكنها فى ذلك اليوم قد أعجلت عن حمل الطبقين ، ولا تذكرهما إلا حين رأت أمها مقبلة تحملهما وتسألها فى غلظة عنهما أين كانا ومن أين سرقتهما ، ثم لا تمهلها ولا تنتظر منها جواباً ، وإنما تجذب شعرها بإحدى يديها وتلهب جسمها بذلك الغصن اليابس فى يدها الأخرى ، ويأخذها الغضب فتصيح ، والفتاة يأخذها الألم فتبكي ، وكلما أمعنت الفتاة فى النحيب أمعنت أمها فى الصياح.

منذ ذلك اليوم عرفت ربة الدار أن خديجة خادم لا كالخدم ، وفتاة لا كالفتيات ؛ فآثرتها بالمودة ، واختصتها بالحب ، وكادت تتخذها لنفسها صديقاً . وقصت على زوجها القصة آخر النهار ، فرق للفتاة وأهلها وأوصى امرأته بها وبهم خيراً ، وتلا قول الله عز وجل : « للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » .

وفتيان القرية يتسامعون بقصة خديجة هذه ، ويتحدثون بما تصور هذه القصة من تعفف لا يجدونه عند الأغنياء ، ومن حياء نادر لا يجدونه فيما يشهدون من أمور الناس ولا فيما يُقص عليهم من أحاديث الحدات . وفتيان القرية يتحدثون عن جمال خديجة الفاتن ، وحسنها الذى يسحر العيون ويخلب القلوب ويملك الألباب . وفتيان القرية يسرون فى أنفسهم حباً لخديجة وإعجاباً بها وطمعاً فيها ، ويعلنون بألسنتهم إطراء لخديجة وثناء عليها ، والأمانى تلعب بعقولهم كل ملعب ، وتسلك بقلوبهم كل سبيل . ثم يتقدم الخاطب ذات يوم من أسرة ليست عظيمة الحظ من الثراء ولكنها بعيدة كل البعد عن الإعدام ، لها أرض تزرع غير بعيد من القرية ، ولها ماشية تخرج من الدار مع الصباح وتعود إليها مع المساء ، وتغل على الأسرة خيراً كثيراً .

والفتى قوى موفور الصحة ،عظيم النشاط جميل المنظر ، منطلق اللسان ولا سيما حين يأخذ زينته ويذهب إلى المسجد ليشهد صلاة الجمعة ثم يعود فيأخذ مع رفاقه فى ضروب من العبث وفنون من الحديث .

وأسرة خديجة تسمع أول الأمر ولا تصدق ، ثم تعرف بعد إنكار ، وتقبل بعد تردد فيه كثير من الأمل الذى يحيى النفوس، والخوف الذى يميت القلوب . وما يمنع هذه الأسرة البائسة أن تجد فى هذه الخطبة روحاً من الله ، سيتيح لها رخاء بعد شدة ، وسعة بعد ضيق ؟ وما يمنعها أن ترى نفسها وبؤسها ، فتشفق من إصهارها لأسرة ذات سعة ويسار ؟ ولكن الفتى صادق محب ملح فى صدقه وحبه ؛ وأسرته لا تعدل برضاه وسعادته شيئاً آخر ، فهى صادقة ملحة فى صدقها ، تبتغى الوسائل إلى إقناع البؤس بأن يصهر إلى النعيم .

وقد استقامت الأمور بين الأسرتين ، ولكنها لم تستقم فى نفس خديجة ، فهى تمتنع على هذا الزواج وتلح فى الامتناع ، تؤثر حياتها هذه التى تحياها خادماً على تلك الحياة التى تدعوها إلى الحرية والاستقلال بأمر نفسها والقدرة على معونة أهلها . وهى تمتنع وتمتنع وتلح فى الامتناع حتى تثير الريبة فى نفس أبويها ؛ فما ينبغى أن تصر على هذا الإباء إلا أن تكون قد قصرت فى ذات نفسها ، وفرطت فيما للشرف على الفتاة من حق :

ومحبوبة تفضى بسرها هذا البشع إلى سيدة خديجة فى صوت يقطعه البكاء وتغمره الدموع ؛ ولكن سيدة خديجة تردها إلى القصد وتعيد الطمأنينة إلى نفسها البائسة وقلبها القلق ؛ وما تزال بالفتاة تلاينها حيناً ، وتخاشنها حيناً آخر ، حتى تختلس منها الرضا اختلاساً . وقد احتفلت أسرة الفتى ليوم الزفاف واحتفلت سيدة خديجة ليوم الزفاف أيضاً ، وهيئت الفتاة لهذا اليوم المشهود من حياتها كأحسن ما تهيأ الفتيات من بنات الطبقة الوسطى لمثل هذا اليوم . وأبت سيدة خديجة إلا أن يبدأ الزفاف من دارها لا من دار شعبان .

وفى ذات ليلة كانت محبوبة قد انكفأت على وجهها أمام بيتها الحقير تريد أن تبكى فلا تجد الدموع ، وتريد أن تتكلم فلا تجد الألفاظ ، وإنما يتردد فى حلقها صوت خفى منكر ، إن دل على شىء فإنما يدل على خوفها وهلعها مما ستنكشف عنه ساعة من ساعات هذا الليل حين يدخل الفتى على زوجه . وهى كذلك ملقاة على الأرض يضطرب جسمها من حين إلى حين اضطراباً عنيفاً ، وتجرى فى أطرافها رعشة تخف لحظة وتعنف لحظة أخرى ، ويتردد فى حلقها هذا الصوت المنكر البغيض ، والفرح من حولها يملأ قلوب الشباب بهجة وسروراً .

ثم تنطلق الزغاريد كأنها سهام من فضة تشق ظلمة الليل الحالكة ، وتسمع طلقات للبنادق هنا وهناك ، ويظهر جمع من

النساء والصبية قد نصبوا شيئاً يشبه أن يكون راية قانية ، وهم يهتفون بألفاظ ينكرها السمع ويمجها الذوق ، وسهام الزغاريد منطلقة يتبع بعضها بعضاً ، كأنما تريد أن تمزق أحشاء الليل تمزيقاً ، وامرأة وقاح تهز محبوبة هزًّا عنيفاً وتزجرها زجراً مخيفاً، وتقول لها فى صوت يسمعه الناس : أفيقى ! ثوبى إلى نفسك ؛ ما تخافين ؟ لقد بيضت خديجة وجهك ووجه شعبان .

وتثوب السكينة إلى محبوبة قليلا قليلا ، وقد أقامها النساء فأجلسنها وقدمن إليها شيئاً من ماء لتسترد صوابها كاملا وقوتها موفورة .

وتنقضى الليلة كما تنقضى ليالى الأعراس ، ويقبل النهار من غد ، ولكن خديجة لا تبدو للزائرات إلا مكرهة على ذلك إكراهاً ؛ تسمع منهن كل شىء ولا تقول لهن شيئاً ، تحاول ان تمسك دموعها فلا تجد إلى إمساك الدموع سبيلا .

وهن يسألنها ، ويتساءلن فيما بينهن : ما خطبها وما مصدر هذه الكآبة التى تغمر نفسها ، وهذه الدموع التى تغمر وجهها ؟ ومتى رأى الناس فتاة يملأ قلبها الحزن فى مثل هذا اليوم الذى تفيض فيه القلوب فرحاً وبشراً ! هن يسألنها فلا يجدن عندها جواباً ؛ لأنها لا تجد عند نفسها جواباً ، أو قل إن الجواب مستقر فى نفسها ولكنها لا تستطيع أن تبديه لأنها لا تستطيع أن تصل إليه ولا تظهر عليه ؛ وهن يتساءلن فيما بينهن فلا يجدن

جواباً لما يدور على ألسنتهن من سؤال . ولو جرت أنفسهن على سجيتها لاخترعن الجواب عن تساؤلهن اختراعاً . وأى شيء أيسر عليهن من الريبة تثار بالحق وبالباطل ! لقد رأين الفتاة أمس تزف إلى زوجها شاحبة الوجه ممتقعة اللون زائغة البصر لا تمسك نفسها إلا فى جهد ، كأنما كانت تساق إلى الموت وهى تنظر إليه ، ولقد كانت أمها ملقاة على الأرض تضطرب اضطراب من مسها الصرع وركبها الشيطان ؛ أليس فى كل هذا وفى بعض هذا ما يريب ؟ ولكنهن رأين الراية القانية ترتفع فى ظلمة الليل وبين خفقان المصابيح .

والضحى يرتفع ، والنهار يوشك أن ينتصف ، وهذه سيدة خديجة قد أقبلت زائرة لها ، تحمل إليها التحية وتحمل إليها الهدية أيضاً ، فترى وتسمع ويروعها ما ترى وما تسمع .

ثم تخلو إلى الفتاة خلوة تطول شيئاً ، وتخرج من عندها متضاحكة تقول لمن حولها : عبث أطفال ، وحياء فتاة غافلة لن تلبث الأيام أن تذهب به كما تذهب بكثير من الأشياء .

ولكن الأيام تمضى ولا تذهب بشيء ، أو يخيل إلى من حول خديجة أن الأيام تمضى كما تعودت أن تمضى فى أعقاب الأعراس ؛ فالفتاة هادئة مطمئنة وإن كان وجهها الصبوح قد فقد غير قليل من جماله وبهجته ، وغشيته سحابة مقيمة من حزن رقيق يزيدها إلى النفوس حباً ويزيد موقعها فى القلوب

حسناً ، وإن كان صوتها الرخص العذب الصافى الممتلىء ، قد جرت فيه نغمة حزينة متكسرة ، تجعله ألذ موقعاً فى السمع ، وأسرع نفوذاً إلى القلب .

وزوج الفتاة سعيد مغتبط كأحسن ما يسعد الأزواج ويغتبطون .

وينطلق الفجر ذات يوم جريئاً يريد أن يمحو آية الليل ، وتغمر الأرض هذه الساعة الحلوة التى تكون بين انطلاق الفجر وإشراق الشمس ، والتى كان صوت خديجة يحضرها فى النفوس بما يملؤها من ترقرق النسيم ، وحفيف الأوراق وهفيف الغصون وسقوط الندى ، وغناء الطيور واستيقاظ الطبيعة ؛ وفى هذه الساعة الهادئة الحلوة يخرج النساء والعذارى من أهل القرية ساعيات إلى النهر متغنيات جمال الحياة كأنه حلم يلم بنفوسهن فى آخر عهدها بالليل ، وأول عهدها بالنهار . ثم يعدن إلى القرية صامتات ، قد أخذ الابتسام يغادر ثغورهن قليلا قليلا ، وأخذت الكآبة تغشى وجوههن شيئاً فشيئاً ، وأخذ الهم يستيقظ فى قلوبهن فنوناً وألواناً ، وأخذن يتهيأن لاحتمال أثقال الحياة وآلامها ما غمرت الشمس قريتهن بنورها الملح الثقيل .

ذهبن إلى النهر فرحات مرحات ، وعدن إلى القرية كاسفات البال بائسات النفوس . وافتُقِدَت خديجة حين تقدم النهار قليلا فلم توجد ، وإنما وجدت على شاطىء النهر وفى مكان بعيد

من حيث تعوّد النساء أن يملأن جرارهن جرةً مملوءةً وإلى جانبها بعض الحلى . والتُمِستْ خديجة في النهر فلم يظفر بها الباحثون .

قالت سيدتها وهى تكفكف دموعها تريد أن تنسجم ، وتثبت صوتاً يريد أن ينفطر : لقد أكرهت خديجة إكراها على الزواج ، ومس حياءها النقي ونفسها الطاهرة منه دنس ، لم يستطع الحب أن يغسله فغسله الموت .

قال سيد خديجة : وصنع الله لأبويها ؛ فقد كتب على محبوبة أن تطوف ما عاشت بالدور تصنع لأهلها الخبز ، وكتب على شعبان ألا ينظف يديه ولا ثيابه من الطين .

٤

المعتزلة

لا أريد تلك الفرقة الإسلامية المعروفة من فرق المتكلمين ، وإنما أريد أسرة مصرية بائسة كنت أنسيت أمرها ، حتى كان هذا الوباء الذى ألم بمصر، فذكرتها ذكراً متصلا ملحًّا ، وحاولت أن أخلص من التفكير فيها فلم أستطع ، فأردت أن أتسلى عن ذكراها بالتحدث عنها لعل هذا التحدث أن يخرجها من ضميرى الخاص إلى الضمير العام ، فيكون فى ذلك تخفيف للعبء ، وتفريج للكرب ، وشفاء لبعض ما فى النفس . والهموم الثقال

تخف إذا شاركت فى حملها ضمائر كثيرة ، ولم يقصر ثقلها على ضمير واحد مهما يكن أيداً قوياً ، فكيف إذا لم يكن له حظ من قوة أو أيد !

وأردت أن أهدى حديث هذه الأسرة البائسة إلى المترفين المنعمين فى الأرض ؛ لا لأبغض إليهم الترف بل لأزينه فى قلوبهم ، ولا لأصرفهم عن النعيم بل لأرغبهم فيه ترغيباً وأدفعهم إليه دفعاً ؛ فقد تحدث الحكماء منذ الزمن الأول بأن الرجل الحازم خليق ألا ينظر إلى الذين يتفوقون عليه ، فتملأ قلبه الحسرة ويثقل نفسه الهم ، وأن ينظر إلى من دونه من الناس فيعرف ما أتيح له من حسن الحظ ، ويحمد رفق الله به ، ورعاية الله له، وإسباغ نعمته عليه ، ويستمسك من أجل ذلك بما قسم له من الخير ، ويستمتع من أجل ذلك بما قدر له من النعيم . وأنا أبعد الناس عن التفكير فى أن أزهد المترفين فى ترفهم وأرغب المنعمين عن نعيمهم ؛ لأنى أعلم من جهة أنى لن أبلغ من ذلك شيئاً إن أردته مهما أنفق من الجهد ، ومهما أبرع فى تدبيج القول وتنميق الحديث ؛ ولأنى أعلم من جهة أخرى أن ترف المترفين إنما يأتيهم بحكم القضاء المكتوب والقدر المحتوم وليس من سبيل إلى تغيير القضاء ، أو تبديل القدر أو إلغاء سنة الله فى الناس ؛ فالله قد خلق الناس على ما نراهم من هذه الفرقة فيما بينهم ، يترف بعضهم حتى يطغيه الترف ، وينعم حتى

يبطره النعيم ؛ ويحرم بعضهم حتى يضيق به الحرمان ، ويشقى حتى يمجه الشقاء . . . ؛ ولأنى أكره بعد هذا وذاك أن أكون كالثعلب الذى حاول أن يصيب العنب ، فلما لم يتح له ذلك عاب العنب وزعم أنه فج بغيض !

وقد خطر لى أن أتخذ لهذا الحديث عنواناً آخر ، هو أم تمام . لا أريد به زوج شاعرنا العظيم ، وإنما أريد به زعيمة هذه الأسرة المصرية البائسة ، فقد كانت تكنى بأكبر أبنائها . وخطر لى أن أهدى حديث هذه الأم وبنيها الثلاثة إلى البائسين المعذبين الذين مسهم الضر قبل الوباء ، وألح عليهم بعد الوباء حين تخطف الموت أبناءهم وآباءهم وأخواتهم وعائليهم وتركهم نهباً للشقاء لا يدرون كيف يتقونه ، ولا كيف يحتملونه ، ولا كيف يخلصون منه ؛ لا لأبغض إليهم حياتهم البائسة وعيشهم النكد ، فما ينبغى أن تبغض إلى البائس بؤسه ولا أن تكره إليه شقاءه ، وإنما ينبغى أن تحبب إليه البؤس ، ليتحمله وليزيد منه إن استطاع ، وأن تزين فى قلبه الشقاء ، ليصبر عليه ويمعن فيه إن وجد إلى الإمعان فيه سبيلا ؛ فالبؤس قضاء محتوم على البائسين ، كما أن النعيم قضاء محتوم على المنعمين ؛ والشقاء قدر مقدور على الأشقياء ، كما أن السعادة قدر مقدور على السعداء . والرجل الحازم العازم الحكيم خليق أن يرضى بالقضاء المكتوب ، والقدر المحتوم ، يحتمل الخير غير زاهد فيه ، ويحتمل الشر

غير ساخط عليه ؛ ولأمر ما وُصف الشرقيون بأنهم أصحاب إذعان للقضاء ، واستسلام للقدر ، ورضا بالمكروه فلنصدق على أقل تقدير قول الغرب عنا وظنه بنا ورأيه فينا ، ليصطنع المترفون الشجاعة ليحتملوا الترف ، وليصطنع البائسون الشجاعة ليحتملوا البؤس ، وليصبر أصحاب الثراء على محنتهم بالثراء ، وأصحاب الحرمان على فتنتهم بالحرمان ، حتى ينتهى أولئك وهؤلاء إلى الموطن الذى لا يكون فيه ثراء ولا حرمان ، والذى لا يكون فيه فقر ولا غنى ، والذى لا يكون فيه يسر ولا عسر ، والذى تتحقق فيه المساواة بين الناس جميعاً حين يصيرون إلى تراب كما خلقوا من تراب . ومهما يكن من شىء فقد ترددت بين هذين العنوانين : المعتزلة ، وأم تمام ؛ كما ترددت فى إهداء هذا الحديث بين المترفين والبائسين ، ثم آثرت آخر الأمر أن أخير القارئ بين العنوانين ، وأن أهدى الحديث إلى الفريقين ؛ فى حديث هذه الأسرة ما يرضى المنعمين والمعذبين جميعاً . وأى مطمع للكاتب أجل شأناً وأعظم خطراً من أن يُرضى قراءه على ما يكون بينهم من اختلاف ؛ وفى حديث هذه الأسرة البائسة ما يسخط المنعمين والمعذبين جميعاً . وما قيمة الكاتب إذا لم يسخط قراءه على ما يكون بينهم من الاختلاف ! وأنا أريد دائماً أن أكون كاتباً ذا خطر ، فأرضى قرائى وأسخطهم ، وأسر قرائى وأسوءهم ، وأعجب قرائى حتى يكلفوا بى أشد الكلف ، وأغيظهم حتى

يمقتونى أعظم المقت ؛ وأنا زعيم للمترفين بأن يجدوا فى حديث هذه الأسرة ما يحبب إليهم ترفهم ، فيعضون عليه بالنواجذ كما يقال ، ويرضون عنى كل الرضا ؛ وبأن أصور لهم هذا الترف منكراً بشعاً ، ومذمماً بغيضاً ، فيسخطون علىّ أشد السخط . وأنا زعيم للمعذبين بأن يجدوا فى حديث هذه الأسرة البائسة ما يعلمهم الصبر على المكروه فيرضون عنى ، وما يلقى فى قلوبهم أن حياتهم لا تطاق ، وأن من حقهم أن يخرجوا منها إلى حياة ألين جانباً وأرق ملمساً ، وأن ليس لهم سبيل إلى هذا الخروج ؛ فيضيقون بى أشد الضيق ، وأبلغ بذلك كل ما أريد ، وهو أن أرضى القراء وأغيظهم مهما يكن بينهم من التفاوت والاختلاف ؛ فأنا لا أريد إلا هذا ، ولا أفكر إلا فيه ؛ وما الذى يعنينى من أن يترف المترفون حتى يقتلهم الترف ، ومن أن يشقى الأشقياء حتى يهلكهم الشقاء ! لا يعنينى من ذلك شىء ؛ لأنى رجل من أهل العصر الذى أعيش فيه ، وأخص ما يمتاز به هذا العصر الذى أعيش فيه الأثرة وحب النفس ؛ فأنا رجل أثر لا أحب إلا نفسى ، ولا أفكر إلا فيها ، ولا أعنى إلا بها ؛ وأنا رجل كاتب لا يعنينى إلا أن أملك على القراء أمرهم بما أثير فى قلوبهم من رضاً وسخط ، وبما أشيع فى ضمائرهم من حب وبغض ولست أزدرى شيئاً كما أزدرى إلقاء الدروس فى الأخلاق ، ولست أنفر من شىء كما أنفر من ترغيب الأغنياء فى العطف على

الفقراء ، ومن تشجيع الأشقياء على احتمال الشقاء . ما أنا وهذا كله ؟ إن الناس من حولى لا يذوقون للتضامن طعما ، ولا يعرفون للتعاطف قدراً ، لا يحفل بعضهم ببعض ، ولا يفكر بعضهم فى بعض ، ولا يأسى بعضهم لآلام بعض ، فما لى أحمل نفسى من الأعباء ما لا يريد الناس من حولى أن يحتملوا ؟ وما لى أدفع نفسى إلى هذا الشذوذ الذى لا خير فيه ولا خير لأحد فيه ؟ وما لى لا أسير سيرة الجيل ولا أعيش عيشة المعاصرين ولا أنتفع بقول أبى العلا :

ولما رأيت الجهل فى الناس فاشياً تجاهلت حتى قيل إنى جاهل

الأثرة ، يا سيدى ، هى الأساس المتين الذى يقوم عليه نظامنا الاجتماعى البديع ، الذى نفتديه بأنفسنا ونحميه بما نملك ومالا نملك من جهد؛ فمن أراد الدفاع عن هذا النظام وحياطته وصيانته من أن يعبث به العابثون أو أن تمسه الخطوب بما لا يحب وبما لا نحب ، فليكن أثراً إلى أبعد غايات الأثرة ، محباً لنفسه إلى أقصى آماد حب النفس ، لا يحفل بالناس إلا بمقدار ما يهيئون له من الخير ، وما يحققونه له من المنفعة ، وما يبلغونه من الآراب ؛ فإذا بعد الأمل بينه وبينهم ، أو خفيت عليه أسرار الصلات التى تجعله محتاجاً إليهم وتجعلهم محتاجين إليه ، فلا عليه من أن ينكرهم إنكاراً ويزدريهم ازدراء ، ويمضى فى طريقه مستمتعاً بطيبات الحياة ، غير ملق بالا إلى ما

يكتنفهم من الهول ، وما يصب عليهم من الهم ، وما يسلط عليهم من الكوارث والنكبات .

كذلك نعيش وكذلك يجب أن نعيش . وأيسر انحراف عن هذا اللون من ألوان العيش ، وعن هذا النظام من نظم الحياة ، خليق أن يجشمنا أهوالا ، ويحملنا هموماً ثقالا . وكيف تستقيم حياتنا إذا عنى أصحاب الترف المترف والثراء العريض بأصحاب البؤس البائس والعذاب الأليم ، فذادوا عنهم بعض ما يثقلهم من البؤس ، ورفعوا عنهم بعض ما يضنيهم من العذاب ، وشغلهم ذلك عن الاستمتاع بلذاتهم والانتفاع بهذه الثمرات الحلوة المرة السائغة الفجة التي تأتيهم من بؤس البائسين وعذاب المعذبين ، وشغلهم ذلك عن أن يجمعوا إلى سخف الحديث حين يرتفع الضحى ، وإلى سخف المتاع حين يقبل المساء ، وإلى اللهو واللعب حين يتقدم الليل ، وإلى النوم الثقيل حين يهم الصباح بالإشراق؟ إذن تفقد الحياة بهجتها ، وتفقد الدنيا زينتها ، ويصبح العيش المصرى كله نكداً كدراً منغصاً ، لا صفو فيه ولا عنو ولا جمال . حسب الأشقياء أن تعطف عليهم ألسنتنا وتنأى عنهم قلوبنا ، وأن نرثى لهم بالقول ونقسو عليهم بالفعل ، ونخلى بينهم وبين أحداث الزمان ونوائب الأيام ، تجرعهم الآلام غصصاً ، وتعلمهم كيف يكون استعذاب العذاب المر ، وإساغة الشر الذى لا يساغ . وأقول هذا كله جاداً لا عابثاً ؛

فالله قادر على أن يمس الأرض بجناح من رحمته ، فيتيح لأهلها جميعاً ما يتمنون من الترف والثراء والنعيم ؛ والله قادر على أن يمس الأرض بجناح من نقمته فيفرض على أهلها ما يكرهون من البؤس والشقاء والعذاب ؛ وما دام الله لم يجعل الناس جميعاً سعداء ، ولم يجعلهم جميعاً أشقياء ، وإنما قسم حظوظهم بينهم على هذا النحو الذى نراه ، فليس لنا وليس علينا إلا أن نريح أنفسنا ، وأن يريح بعضنا بعضاً من اللوم والنكير والتثريب ، وأن يرضى كل منا بما قسم له من الحظ ، وأن يحقق السعيد إرادة الله فى الأرض فينعم بالسعادة كأقصى ما يستطيع ، وأن يحقق الشقى إرادة الله فيغرق فى الشقاء إلى كتفيه أو إلى أذنيه ، أو إلى شعر رأسه إن شاء !

وقد يظن القارئ أنى قد أسرفت فى البعد عن هذه الأسرة المعتزلة ، وعن حديث أم تمام؛ ولكنه يخطىء أشد الخطأ إن ظن بى هذا الإسراف ؛ وهبه يصيب كل الصواب حين يظن بى هذا الإسراف ، فليس يعنيني من خطئه أو صوابه شيء ، وإنما الذى يعنيني هو أنى أنا لا أعتقد أنى أطلت المقدمات أو انحرفت عن موضوع الحديث ، فقد قلت إن هذا الوباء الذى ألم بمصر أذكرنى من أمر هذه الأسرة المعتزلة ما كنت ناسياً ، ثم ألح علىّ ذكرها إلحاحاً شديداً . وأكبر الظن أنى لم أذكر هذه الأسرة البائسة ذكراً متصلا ملحاً ، ليقف منها عقلى

وقلبي موقف الناظر لما المحدق فيها ، دون أن يثير ذلك فى العقل بعض الخواطر ، ودون أن يثير ذلك فى القلب بعض العواطف ، ودون أن يشيع ذلك فى الضمير بعض الحزن . والكتاب البارعون فى الفن يؤخرون خواطرهم عقولهم وعواطف قلوبهم وأحزان ضمائرهم إلى آخر الحديث ، يجعلون من هذا كله عبرة لمن يريد أن يعتبر ، وموعظة لمن يريد أن يتعظ ؛ فيجعلون من أنفسهم أساتذة فى الأخلاق ، ومصلحين لنظم الاجتماع ، ويرضون عن أنفسهم بعد ذلك كل الرضا ، ويجهلون أن القارئ أشد منهم مكراً وأبلغ منهم دهاء ؛ وأنه يقرأ أول الحديث لما قد يجد فيه من تسلية ، أو لما قد يلتمس فيه من تسلية ، ويترك آخر الحديث لأنه يضيق بدروس الوعظ والإرشاد والإصلاح أشد الضيق .

ومن الكتاب البارعين من يشيعون خواطر عقولهم وعواطف قلوبهم وأحزان ضمائرهم فى حديثهم كله منذ يبدأونه إلى حيث يفرغون منه ، يتخذون من قصصهم أغشية لهذه المواعظ والعبر ، فيخدعون بذلك بعض القراء عن أنفسهم ولكنهم لا يخدعون القراء جميعاً ، فلا يكاد الأذكياء منهم يقرأون حتى يستكشفوا مكر الكاتب ويعرفوا حيلته ، فيقرأون على كره أو يزورّون عن القراء ازوراراً ؛ فأما أنا فقد قلت وما زلت أقول : إنى لا أريد أن أعلم جاهلا ، ولا أريد أن أعظ غافلا ولا أن أنبه ذاهلا ؛

فلست من هذا كله فى شىء ، لأنى واثق بأن القراء جميعاً علماء لا يمكن أن يرقى إليهم الجهل ، أذكياء لا يمكن أن تسعى إليهم الغفلة ، متنبهون لا يمكن أن يعرض لهم الذهول ؛ وقلت وما زلت أقول : إنى لا أريد أن أخدع أحداً عن نفسه ، لأنى لا أسىء الظن بالقراء ، ولا أنظر إليهم على أنهم أطفال يجب أن يلهوا عن الدواء بهذه الأغشية التى تجنبهم مرارته وكراهته؛ فكيف وأنا لا أقدم إليهم دواء ، لأنى لست طبيباً ، ولأنهم ليسوا مرضى ، ولأنى راض عن حياتنا التى نحياها كل الرضا ، مطمئن إليها كل الاطمئنان ، معجب بها أعظم الإعجاب ، لا أريد أن أغير منها قليلا ولا كثيراً ، ولا أحب أن يتغير منها قليل أو كثير ؛ وأول هذا الحديث يدل فيما أظن دلالة واضحة على أنى من المحافظين المتشددين فى المحافظة ، ومن أصحاب اليمين الذين لا يضيقون بأحد كما يضيقون بأصحاب الشمال .

ومن أجل هذا كله اخترت أن أتحدث إلى القراء فى هذا المقال عن أم تمام وأسرتها المعتزلة ، لأن أم تمام كانت تصور المحافظة الميامنة أبرع تصوير وأصدقه وأقواه ؛ فهى كانت من أهل الصعيد الأعلى ، وأهل الصعيد محافظون كما يعلم القراء ، لم يفسدهم العلم ، ولم تنحرف بهم المعرفة عن الطريق القصد ، ولم تعلمهم الحضارة وما كثر فيها من البدع أن فى الأرض جوراً يجب أن يرتفع عنها ، وأن فى السماء عدلا يجب أن يهبط إلى

الأرض يملأها أمناً ودعة ورضا ؛ وإنما هم قوم يعيشون على فطرتهم ، ويرسلون نفوسهم على سجاياها . رأوا الأرض ملعباً لقليل من ملائكة العدل وكثير من شياطين الجور ، فأحبوا أولئك وألفوا هؤلاء، ولم يطلبوا من أولئك ولا هؤلاء إلا أن يمضوا فيما استأنفوا من لعب، فإن مسهم من هذا اللعب خير نعموا به ، وإن مسهم منه شر شقوا به ، غير منكرين ولا معترضين ولا محاولين تغييراً ولا تبديلا ، ويقال إن الكاتب يختار أشخاصه على صورته ، وقد يقتطعهم من نفسه اقتطاعاً؛ ولولا أن أم تمام كانت غارقة فى البؤس والشقاء ، ومسرفة فى الدمامة والقبح ، لقلت إنى اقتطعتها من نفسى اقتطاعاً ؛ ولكنى لست غارقاً فى البؤس والشقاء ، والحمد لله على كل حال ؛ وسيرى القارئ أن صورة أم تمام ليست منى فى شيء ، فيدله ذلك من غير شك على أنى لم أخترعها ولم أبتدعها ، وعلى أن خيالى الضعيف الكليل ليس له فى حياتها ولا فى حياة أسرتها أثر ما ، وإنما هى حقيقة واقعة خلقها الله الذى يخلق الحقائق كلها ، والذى يقسم بين الناس حظوظهم من الجمال والقبح ، كما يقسم بينهم حظوظهم من السعادة والشقاء.

وقد كانت أم تمام هذه غريبة الأطوار من كل جوانبها ، حتى أنى لا أستطيع أن أختار الطور الذى أبدأ به من أطوارها . وربما كان الخير أن أعرض عليك صورة ضئيلة حقيرة للبيت

الضئيل الحقير الذى كانت تعيش مع أبنائها فيه .

فقد كان هذا البيت أشبه شىء بالبقعة القذرة التى تفسد جمال الثوب الجميل النقى ؛ كان ضيقاً فى الفضاء أشد الضيق ، منخفضاً إلى الأرض أشد الانخفاض ، قد أقيم من هذا الطين الساذج الذى يخلطه الفلاحون بشىء من التبن والقش ويسوونه تسوية مقاربة ويسمونه فى مصر الوسطى « بالطوف » ثم يجمعون بعض هذه الأطواف إلى بعض حول قطعة من الأرض ، يرفعونها فى الجو شيئاً، ويمدونها فى الفضاء شيئاً، ويلقون عليها طائفة من سعف النخيل أو من قصب الذرة ، ويتخذون لها باباً من خشب رقيق ، فتصبح بيتاً يأوون إليه ويتقون فيه برد الشتاء وحر الصيف ومطر السماء، إن كان من الممكن لمثل هذا البناء المهلهل أن يقى الذين يأوون إليه برداً أو حرًّا أو مطراً . وكان بيت أم تمام هذا الصغير الحقير يقوم بين دارين ضخمتين فخمتين ، أو قل بين فناءين واسعين لهاتين الدارين ، وفى كل فناء من هذين الفناءين قامت أشجار وشجيرات ، بحيث همّ كل فناء منهما أن يكون حديقة تقوم أمام الدار ولكنه لم يبلغ أن يكون حديقة ، فكان شيئاً بين الفناء المهمل والحديقة التى يمنحها الناس شيئاً من عناية ، ويجدون فيها شيئاً من راحة وروح . ولم أدر كيف قام هذا البيت الحقير الصغير بين هاتين الدارين العظيمتين ، وقد سألت الناس من حولى عن هذا ، كما سألتهم

عن مقدم أم تمام وبنيها إلى القرية وإقامتها فى هذا البيت، فلم أجد عند أحد منهم جواباً ؛ لأنهم كانوا جميعاً طارئين على القرية، دعتهم إليها الدائرة السنية ؛ ولأن القرية نفسها كانت طارئة على المكان ، أنشأتها فيه الدائرة السنية ؛ فلم يكونوا يعرفون من أمر جيرانهم ولا من أمر قريتهم إلا قليلا أو أقل من القليل. وكانت سيرة أم تمام وبنيها تمنع جيرانها من أن يعرفوا شيئاً من أمرها ، فقد كانوا يعتزلون الناس اعتزالا غير مألوف . ولكن أوان الحديث عن هذا الاعتزال لم يئن بعد ؛ فقد ينبغى أن تعرف قبل ذلك أم تمام هذه ، أو أن ترى صورتها على أقل تقدير ، فصورتها خليقة أن ترسم : كانت أم تمام قصيرة مسرفة فى القصر ، منحنية مسرفة فى الانحناء، همت قامتها أن ترتفع فى الجو فلم تستطع أن تستقيم ، وإنما انعطف أعلاها على أسفلها كأنها خلقت لتلتصق بالأرض التصاقاً . وكانت من أجل ذلك أشبه بذوات الأربع منها بالإنسان ذى القامة المعتدلة والقد المستقيم ؛ وكانت من أجل هذا إذا مشت خيلت إليك أنها تتدحرج كما تتدحرج الكرة، وكان مشيها بطيئاً رفيقاً ، فكان يشبه حركة الكرة عند ما تخف عنها قوة الدفع فتضطرب مبطئة تسعى إلى السكون ؛ وكان صوت أم تمام نحيلا ضئيلا ، وكانت قد فقدت بعض أسنانها ، فكان صوتها النحيل الضئيل يستحيل إذا تكلمت إلى هواء خافت لا يكاد السامع يتميز حروفه إلا

فى مشقة وجهد . وكان يعيش معها فى بيتها ذاك الصغير الحقير غلامان ، كاد أحدهما أن يبلغ العشرين ، وهو تمام ؛ وجاوز الآخر الخامسة عشرة قليلا ، وهو أبو العلاء . وكان تمام وأخوه يعملان فى البناء ؛ يحاول تمام أن يكون بناء ، ويحمل أخوه الطين والماء وغيرهما من الأدوات التى تتصل بعمل البنائين ، ويصيب الغلامان من هذا العمل الذى يتصل أحياناً وينقطع أحياناً أخرى ما يتيح لأسرتهما قوتاً يقيم الأود ولا يكاد .

وكانت لأم تمام بنت فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها ، وهى سعدى التى كان الجمال والدمامة يختصمان على وجهها وجسمها كله اختصاماً شديداً ؛ يريد الجمال أن يستخلصها لنفسه مستعيناً بقوة الصبا والشباب ، ويريد القبح أن يؤثر بها نفسه مستعيناً بالبؤس وما يستتبعه من الحرمان ؛ وكانت الصبية بين هذين الخصمين أشبه شىء بالكرة يتقاذفها اللاعبان .

ولم يعرف أحد لهذه الأسرة زعيما ، بل لم يعرف أحد كيف هبطت الأسرة من أعلى الصعيد إلى هذه القرية من قرى مصر الوسطى ؛ وإنما كان الناس يتحدثون بأن أم تمام قد نهضت وحيدة أو كالوحيدة تنشىء بنيها الثلاثة وقد لقيت فى ذلك جهداً جهيداً وعناء شديداً ؛ لم تهبط بهم من صعيدها الأعلى إلى قريتنا تلك إلا متنقلة بين المدن والقرى ، تقيم فى هذه المدينة سنة أو أقل أو أكثر ، وتقيم فى هذه القرية أشهراً ، وفى هذه

القرية أسابيع ، وفى هذه القرية أياماً قليلة أو كثيرة ، حتى انتهت إلى قريتنا تلك ؛ فأقامت فيها وأطالت المقام .

ولم يكن اسم أم تمام أقل غرابة من كنيتها ، بل لم يكن أقل من جسمها ؛ فأنت إن أردت أن تنطق به كما كان الناس ينطقون به فى القرية قلت : ست آبوها ، وإن أردت أن تنطق به على أصول اللغة الفصحى قلت : سيدة أبيها ، أو ست أبيها ، كما كان الناس ينطقون فى بعض عصورنا القديمة . وكان هذا الاسم يقع من آذاننا موقعاً غريباً ، وكنا ننطق به على أنه لَتىٌّ كلمة واحدة لا كلمتان ؛ وكنا نسأل أنفسنا عن معنى هذا اللفظ الغريب .

ولم تحاول أم تمام قط ولم يحاول أحد من بنيها قط الاتصال بالناس إلا حين كانت الضرورة الملجئة تضطرهم إلى ذلك اضطراراً ؛ فقد كانوا يحتاجون إلى أن يشتروا الطعام ليقيموا أودهم ، وكانت أم تمام تحتاج أحياناً إلى أن تبيع ؛ فقد كان يعرض لها فى بعض الوقت أن تخرج إلى الطريق الزراعية العامة ، وأن تلتقط من هذه الطريق روث البقر والجاموس ، تقطعه قطعاً متقاربة ، وتجففه على سقف بيتها ، وتتخذ منه وقوداً لتطبخ إن أتيح لها أن تطبخ ، وتبيع فضله بين حين وحين لبعض نساء القرية بالقروش أو بعض القرش ، توسع بذلك على نفسها وعلى بنيها ، ولم يخطر فيما أعلم لأحد من الموسرين ولأهل الدارين

اللتين كانتا تكتنفان بيتها أن يبروا هذه الأسرة بقليل أو كثير من الخير ، لا لأن الموسرين كانوا يبخلون بالمعونة على الذين يحتاجون إلى المعونة ، بل لأنهم فى أكثر الظن قد هموا أن يبروا هؤلاء الناس فردوا برهم عليهم فى شىء من التعفف الذى لا يُحَبُّ من الفقراء ، فكف الموسرون عن محاولة الرفق بهم والتوسيع عليهم فى الرزق .

وأمثال أم تمام فى القرى يوسعن على أنفسهن وعلى أبنائهن وأزواجهن أحياناً بالعمل فى دور الموسرين والأغنياء ، يكسبن من هذا العمل قوت أنفسهن وفضلا من خير يحملنه إلى البيوت ، فيأكل الجائع ويكتسى العريان ويذوق المحروم شيئاً من طيبات الحياة ؛ ولكن أم تمام لم تحاول شيئاً من ذلك ولم تفكر فيه ، وكأنها قد حرجت على ابنيها أن يحاولا بعض ما يحاول الشباب الفقراء من الاتصال بشباب الأغنياء وأصحاب السعة ؛ فلم يكن الغلامان يشاركان فى لعب ولا فى جد . وربما رآهما الراعون وقد جلس كل منهما إلى أخيه يخططان فى الأرض أو يلعبان لعبة « الطاب » ؛ وكذلك نظر أهل القرية إلى هذه الأسرة على أنها أسرة غريبة ثقيلة سمجة ، ليست منهم وليسوا منها فى كل شىء

وكان أهل القرية مع ذلك يتحدثون فيما بينهم عن هؤلاء الناس فى إشفاق كثير لا يخلو من سخرية ، وربما يقسو — إن أمكن أن يكون الإشفاق قاسياً — فيشتمل على شىء من شماتة . كانوا

يرون هذين الغلامين يحتملان أشد العناء وأشق المشقة ليكسبا القروش القليلة فى بعض الأيام، ويتساءلون كيف تعيش هذه الأسرة من هذا الكسب القليل؛ وكانوا يرون هذين الغلامين وقد بليت ثيابهما فكشفت عن مواضع من الجسم من حقها أن تستر ، ورقعت حتى ملت الترقيع ؛ وكانوا يرون الصبية سعدى فى أسمالها البالية ، فيرحمون هذا الصبا النضر فى هذا الغشاء المبتذل . ويقول بعضهم لبعض: لولا الكبرياء لأصاب هؤلاء الناس عيشاً أرق رقة وألين ليناً .

أما أم تمام فلم يرها أحد قط إلا ملتفة فى شقتها السوداء تتدحرج على الأرض حين تشرق الشمس ساعية إلى الطريق العامة ، وتتدحرج على الأرض حين يرتفع الضحى أو ينتصف النهار ، حاملة ما جمعت من روث ؛ وربما رآها الراءون متبذلة على سقف بيتها تقطع الروث وتسويه ، فرأوا منظراً بشعاً وشكلا مخيفاً.

ويقبل الوباء ولما يبلغ هذا القرن من عمره سنتين . ويلم الوباء بالقرية فيما يلم به من المدن والقرى ، ويفجع الناس فى أنفسهم وأبنائهم وذوى قرابتهم ومحبتهم ؛ وتكون أم تمام فى طليعة الذين يفجعهم الوباء ، فهو يختطف ابنيها فى أقل من خمسة أيام ، وهى مع ذلك هادئة ساكنة مطرقة بجسمها كله إلى الأرض ، لا يرتفع لها صوت بالإعوال ، ولا ينخفض لها صوت بالنحيب ؛ وإنما هى مقيمة فى بيتها ، وقد آوت إليها ابنتها كأنما

تنتظران أن يلم الوباء بهما ويختطفهما كما اختطف الغلامين . ولكن الوباء قد أرضى حاجته من هذا البيت فهو لا يعود إليه ، فإذا طال انتظار أم تمام له فى غير طائل ، نظر الناس فإذا أطوارها قد تغيرت من جميع جوانبها ، وإذا حياتها قد بدلت تبديلا ، فهى لا تألف بيتها ولا تحب الاستقرار فيه ، وإنما تمسك فيه الصبية وتحرج عليها أن تخرج منه ، وتنطلق هى مع الشمس المشرقة لتعود إلى بيتها وابنتها حين ينشر الليل ظلمته على الأرض ، ويسعى الموت والمرض مستخفين إلى البيوت .

كانت أم تمام تخرج من بيتها حين تشرق الشمس ملففة فى شقتها السوداء مطرقة بجسمها كله إلى الأرض ، فتقف أمام بيتها وقفة قصيرة تستقبل الغرب ، وترفع رأسها فى تكلف شديد إلى السماء ، وتمد بصرها أمامها ، ثم تلتفت إلى يمين وإلى شمال تجذب الهواء بأنفها جذباً ، كأنما تحاول أن تتنسم رائحة خفية ضئيلة ، وقد كانت بالفعل تتنسم رائحة الموت تندفع إلى يمين أو إلى شمال ، ثم لا يراها الناس أثناء النهار كله إلا فى دار من هذه الدور التى ألم بها الموت وقام فيها المأتم يندبن ويبكين ؛ وكانت أم تمام تصل إلى هذه الدار أو تلك فلا تقول لأحد شيئاً ولا تلقى إلى أحد سمعاً ، وإنما تقصد المأتم الباكيات ، وتجلس حيث ينتهى بها المجلس ، لا ترفع صوتاً بإعوال ولا تخفض صوتاً بنحيب ، لا تلطم وجهها ولا تخمش صدرها

ولا تصنع صنيع أحد من هؤلاء النساء ، وإنما تجلس ساكنة منعطفة على نفسها ، كأنها قطعة من صخر قد سويت على عجل ونحتت فى غير نظام ، وفاض من عينيها دمع غزير غير منقطع ، كأنه بعض تلك الينابيع الضئيلة التى يتفجر عنها الصخر فى الجبال ؛ حتى إذا بلغت حاجتها من البكاء فى هذه الدار تركتها إلى دار أخرى ، ثم إلى دار ثالثة ، وما تزال كذلك حتى ينقضى النهار ، لا تكلم أحداً ولا يكاد يكلمها أحد ، ولا ترد على الذين كانوا يكلمونها رجع الحديث . أكانت تبكى ابنها ؟ أم كانت تبكى أبناء تلك الأسرة التى كانت تلم بها ؟ أم كانت تبكى صرعى الوباء جميعاً ؟ أم كانت تبكى نفسها وابنتها بين الذين لم يصرعهم الوباء ؟ وكيف كانت تعيش ، وكيف كانت تتيح لابنتها الصبية أن تعيش ؟ لم يستطع أحد قط أن يعرف من ذلك قليلا ولا كثيراً ، لم يحاول أحد أن يعينها ، ولم تحاول هى أن تستعين بأحد ، وإنما أنفقت أيام الوباء تتنسم ريح الموت حين يسفر الصبح ، وتسفح دموعها فى منازل الموت أثناء النهار ، وتعود إلى بيتها وابنتها حين يقبل الليل . وتنجلى غمرة الوباء ، وتخرج أم تمام من بيتها مع الصبح أياماً وأياماً ، فتستقبل بوجهها الغرب تتنسم ريح الموت فلا يحملها إليها النسيم ، فترجع أدراجها وتدخل بيتها وتغلق من دونها الباب ، ولا يراها النهار إلا حين تخرج مع الصبح لتتنسم ريح الموت .

ويراها بعض أهل القرية ذات يوم قد خرجت قبل أن يرتفع الضحى ، وأخذت بيده ابنتها ، وجعلتاتسعيان فى بطء نحو الغرب ، فيقول بعضهم لبعض : هذه أم تمام قد ملت البطالة ، وسئمت السكون وشق عليها وعلى ابنتها الجوع ، فخرجتا تلتمسان الرزق وتبتغيان من فضل الله . ولكن النهار لا يكاد ينتصف حتى يأتى نفر من الفلاحين يحملون جثة قد شاع فيها الموت ، وجثة أخرى تمتنع على الموت امتناعاً ، قد رأوا أم تمام تغرق نفسها وابنتها فى القناة الإبراهيمية ، فأسرعوا إلى استنقاذهما ، ولكن الموت سبقهم إلى الشيخة وسبقوه هم إلى الصبية ؛ وقد دفن أهل الخير أم تمام ، وآووا سعدى ، فى هذه الدار أياماً وفى تلك الدار أياماً ؛ ولكن سعدى خرجت من الماء بلهاء ليس لها حظ من عقل ولا نصيب من صواب ، فهى ثقيلة على الذين يؤوونها ، بغيضة إلى الذين يضيفونها ؛ وما هى إلا أسابيع حتى تلفظها الدور والبيوت ، وإذا هى مشردة تسعى ما استطاعت السعى ، وتسكن حين تضطر إلى السكون ، تراها فى هذا الشارع من شوارع القرية مصبحة ، وفى هذا الزقاق من أزقتها ممسية ، وتراها بين ذلك فى الطريق العامة تسعى سعياً رفيقاً كأنها السلحفاة ، أو تعدو عدواً سريعاً كأنها الأرنب . وقد تراها أحياناً جالسة على شاطىء القناة تنظر إلى الماء كأنها تريد أن تغوص فيه ، أو تنظر إلى السماء كأنها تريد أن ترقى إليها . وعرف الناس سعدى

البلهاء ، ونسى الناس أم تمام ، وجعل الناس ينظرون إلى سعدى البلهاء كما ينظر أهل الريف إلى أمثالها : يعطفون عليها حيناً ويضحكون منها أحياناً، يرثون لها مرة ويقسون عليها مرات .

وسعدى البلهاء على ذلك تعيش وتشب ويستدير جسمها ويستقيم قدها ، ويسخر البؤس منها فيلقى على وجهها مسحة من جمال ، وهى على ذلك حمقاء خرقاء لا تحسن أن تعمل، ولا تحسن أن تقول ، ولا تستقر فى مكان ، وإنما هى متنقلة بين القرى، تُرَى فى هذه القرية يوماً وفى تلك القرية يوماً آخر ، وقد تُرَى فى هذه القرية مصبحة وفى القرية المجاورة من قرب أو من بعد ممسية ؛ ولكن أهل القرية يرونها ذات يوم فيرون منظراً عجباً من شأنه أن يمزق القلوب حزناً ويفرق النفوس حسرة وأذى، يرون هذا المنظر المؤذى البشع البغيض ، فلا يثير فى نفوسهم رحمة ولا يجرى ألسنتهم بكلمة رثاء ، وإنما ينظرون ثم يتضاحكون ثم يتبادلون هذه الألفاظ الغليظة التى تصور سخرية أهل الريف؛ لأنهم يرون سعدى البلهاء تسعى وبطنها يسعى بين يديها ، قد عبث بها غول من أغوال الطريق فوضع فى أحشائها جنيناً ، وهى بلهاء لا تفرق بين الغول والرجل ولا بين الملك والشيطان ، ولا تعرف ما يراد بها ولا تعرف ما تريد إن كان لمثلها أن تريد .

أين مضت سعدى بهذا الجنين الذى كانت تحمله فى أحشائها ؟ أ أتيح لهذا الجنين أن يرى النور أم لم يتح له أن يراه؟

ما خطبه وما خطب أمه ؟ لن أحدثك من أمرهما بشيء لأنى لم أعرف من أمرهما شيئاً ، وإنما حدثتك بما وقف عنده علمى ، فقد ارتحلتُ عن القرية قبل أن تبلغنى أنباء الجنين وأمه البلهاء ، ثم شُغِلتُ عن الجنين وعن أمه البلهاء ، وأنسيت أم تمام وابنيها ، وتقلبت فيما شاء الله أن أتقلب فيه من شؤون الحياة خمسة وأربعين عاماً . ثم أعود إلى مصر بعد غيبة عنها قصيرة أو طويلة ، فأجد فيها الوباء ، وما هى إلا أن أذكر أم تمام وابنتها سعدى البلهاء ، وما هى إلا أن أسأل نفسى أيمكن أن يجد الوباء الحديث ما وجد الوباء القديم من حال أم تمام وأشباه أم تمام ؟

يقال إن شؤون مصر قد تغيرت ، وإن حياة مصر قد صلحت فيما يقرب من نصف قرن ؛ ولكن شؤون مصر التى تغيرت ، وحياة مصر التى صلحت ، لم تمنع الوباء من أن يجدد عهده بزيارة مصر ؛ فمن يدرى ! لعل تغير الشؤون وصلاح الأحوال ورقى النظام الاجتماعى والسياسى ، لا يمنع من أن توجد فى قرية من قرى مصر العليا أو من قرى مصر السفلى ، أو قريباً جدًّا من القاهرة ، أسرة معتزلة كأسرة تمام .

٥

رفيق

١

كان ذلك فى ساعة من ساعات الضحى ، حين كان النهار يجب أن يبطىء فى سعيه ، ليحبس الصبية والشباب من أهل الكتاب ، ويمسكهم فى حياتهم تلك التى كانت تخضعهم لعنف سيدنا ومكر العريف ، ويؤخر عنهم هذه اللحظة السعيدة التى يؤذن لهم فيها بالانطلاق ليصيبوا غداءهم ، والتى كانوا ينتظرونها متشوقين إليها ، لا ليرضوا حاجاتهم إلى الطعام ، بل ليرضوا حاجاتهم إلى الحرية واللعب . وكان الصبية والشباب من أهل الكتاب يستبطئون ارتفاع الضحى وزوال الشمس ، ويخدعون أنفسهم عن هذا الانتظار الشاق البغيض ، بنشاط غريب مفاجىء ، ترتفع فيه الأصوات بالقراءة وتكثر فيه حركة الأيدى التى تمسح الألواح لتزيل منها ما حفظ أمس ، وتكتب فيها ما سيحفظ بعد الغداء . وكان الكتاب فى ذلك الوقت أشبه شىء بخلية النحل ، كله حركة ، وكله نشاط ، وكله دوى يرتفع حتى يُسمع من بعيد جداً ، على ما فيه من تباين الأصوات واختلافها بين أصوات الصبية النحيلة الضئيلة العالية التى لم تثبت بعد ، وأصوات الصبية التى أخذت تمتلىء لأن أصحابها

قد تقدمت بهم السن شيئاً ، وأصوات الشباب التى كادت تشبه أصوات الرجال وكادت تستوفى حظها من الامتلاء؛ وكانت هذه الأصوات المختلفة المنطلقة فى وقت واحد ، تحمل إلى الآذان شيئاً حلواً رائقاً ، فيه كثير من الملاءمة والانسجام ، يشبه ما تحمله إلى الأذن الأدوات الكبيرة للموسيقى حين يشتد اختلافها فى طبيعة الجرس ، وينشأ عن ائتلاف مختلفها جمال يسحر السمع ، ويملأ النفس روعة وطرباً .

فى هذه الساعة من ساعات الضحى ، وفى ساعة أخرى من ساعات النهار حين كان المؤذن يوشك أن يدعو إلى صلاة العصر ، كانت حماسة الصبية والشباب من أهل الكتاب تبلغ أقصاها ؛ ولم يكن من اليسير أن يظفر سيدنا أو العريف بردهم إلى السكوت دون أن يصفق تصفيقاً قوياً ، ويخرج من حلقه صوتاً كأنه الرعد يقرع الآذان ويفجأ النفوس ، فيعقد الألسنة عن النطق ، ويكف الأيدى عن الحركة ، ويعقل التلاميذ فى صمت أبله ، وسكون أحمق ، ووجوم غريب .

فى ساعة من تلك الساعات ، وقف على عتبة الكتاب بين شقّى الباب رجل تجاوز الشباب ولكنه لم يمعن فى الشيخوخة ، وعليه مظهر الثروة وارتفاع المنزلة ، يعرف ذلك من لباسه الأنيق ، ووجهه الذى تشرق فيه الثقة وتظهر عليه الكبرياء . وكان الرجل مرتفع القامة ، مهيب الطلعة ، ظاهر النعمة ، يدل منظره على أنه

راض عن نفسه كل الرضا ، مستقر فى الحياة كل الاستقرار ، لا يخاف شيئاً ولا يشك فى شىء ، ولا يعرف التردد ولا الاضطراب ؛ وأكبر الظن أنه كان ضابطاً من ضباط الجيش وقتاً ما ، ثم تحول عن الحياة العسكرية إلى الحياة المدنية ، فانتقل إلى هذه الحياة الجديدة محتفظاً بعاداته وتقاليده العسكرية كلها أو أكثرها ؛ وأكبر الظن أنه لم يكن مصرى الأصل ؛ وإنما كان تركياً تمصر هو أو تمصرت أسرته ؛ فقد كان يحمل فى وجهه وفى شكله كله شيئاً لا أدرى ما هو ، ولكنه يبين أنه ليس من المصريين ، ويباعد بينه وبين المصريين مباعدة ما ، ويثير فى نفوس المصريين إذا رأوه من قريب شيئاً غريباً فيه إكبار له وفيه استخفاف به .

وكان هذا الرجل حين وصل إلى الكتاب ، قد أعطى كلتا يديه لصبيين يكتنفانه ويسعيان معه سعياً رفيقاً ، فأما أحدهما عن يمينه فقد كانت على وجهه سحابة رقيقة من حزن ، وأما ثانيهما عن شماله فقد كان باسم الثغر مشرق الوجه يكاد يخرج من جسمه قوة ونشاطاً ؛ فلما بلغ باب الكتاب ومن حوله هذان الصبيان ألقى تحيته ، فسمع أهل الكتاب صوتاً لم يسمعوا مثله قط فى قريتهم ، صوتاً ضخماً عريضاً ممتلئاً ، أغنى سيدنا وأغنى العريف عن التصفيق والزئير ؛ فقد قرع آذان التلاميذ ، وفجأ نفوسهم ، وعقلهم فى هذا السكوت الأبله ، وفى هذا

السكون الغريب ، ووثب بسيدنا كأنما دفعه دافع ، فإذا هو قائم على دكته قد أعجل حتى عن أن يقوم كما تعود أن يفعل فى مهل وأناة ، وقد رد التحية على صاحبها فى شىء من وجل ، ثم دعاه إلى أن يتفضل بالجلوس ، وتنحى له عن موضعه فى صدر المكان ؛ وشكر الزائر لهذا الشيخ احتفاءه به ودعاءه له إلى الجلوس ، ولكنه أبى أن يدخل وأبى أن يجلس ، وقال فى صوته ذاك المهيب المخيف : « إنى حديث عهد بهذه المدينة ، لم أصل إليها إلا منذ يومين . وقد عرفت أن كتابك هو خير ما فيها من الكتاتيب ، فأحببت أن أقود إليه ابنىّ هذين ، وأن أكل إليك تعليمهما ؛ فأما أحدهما فهو هذا — وقدم الصبى الذى كان قد أعطاه يده اليمنى — فقد فقد بصره إلا قليلا ، فهبه كل عنايتك وأحفظه القرآن ، فإنى قد وهبته للأزهر ؛ وأما ثانيهما فعفريت ما أراه يصلح إلا للمدرسة ، فأمسكه فى الكتاب حتى لا ينسى من الكتابة والقراءة ما تعلم ، وأحفظه شيئاً من القرآن ، وخذه بشدة إن أبى إلا أن يكون عفريتاً فى الكتاب كما هو عفريت فى البيت . » ثم دفع من فمه ضحكاً عريضاً ما أظن إلا أنه روع بعض القلوب فى صدور أولئك الصبية الصغار ؛ ثم تقدم خطوة وأخذ بيد سيدنا فوضعها على كتف أحد الصبيين وقال : « هذا هو الأزهرى » . ثم رفع يد سيدنا عن كتف ذلك الصبى ووضعها على كتف الصبى الآخر وهو يقول

متضاحكاً : « وهذا هو العفريت » . ثم قال لسيدنا : « أما الأزهرى فاسمه عثمان، وأما العفريت فاسمه محمود . أتريد أن أتركهما لك منذ الآن ؟ أم ترى أن أعود بهما اليوم على أن يستأنفا سعيهما إلى الكتاب إذا كان الغد ؟» وهم سيدنا أن يجيب ، ولكن الرجل لم يمهله وإنما قال : « سأستصحبهما اليوم وسيسعيان إلى الكتاب منذ غد ؛ ولا تطلقهما للغداء فسيحمل إليهما غداؤهما كل يوم ، ولا تطلقهما إذا صليت العصر حتى يأتى من يصحبهما إلى الدار ، فإنهما غريبان لا يعرفان طريق المدينة بعد وليست الدار قريبة من الكتاب » . ثم ألقى تحيته بصوته ذاك المرعب المخيف ، وأدار ظهره منصرفاً لم ينتظر أن ترد عليه تحيته . وما أحسب إلا أنه قد سمع هذا الضحك الذى اندفع الكتاب كله فيه ، والذى لم يستطع سيدنا ولا العريف أن يكفا عنه التلاميذ إلا حين أذنا لهم بالانطلاق ليصيبوا غداءهم، على أن يذكروا أن من تأخر منهم عن موعده فلن تعفى رجلاه من هذا النصيب المعلوم من العذاب الذى لم يكن يقل عن خمسة سياط وربما بلغ العشرين سوطاً .

وقد رضى سيدنا ورضى معه العريف عن يومهما ، وعما ساق الله إليهما من الخير فيه ؛ فقد كان هذا الرجل موظفاً كبيراً طرأ على المدينة منذ أيام ، ولم يكن شك فى أنه ضابط تركى قديم من ضباط الجيش ، يظهر ذلك فى حديثه ، وفى

عربيته التى تبرأ من الرطانة والتكسر ولكنها لا تمضى مستقيمة إلى غايتها ، وإنما يثقل بها لسانه ، ويتعثر بها منطقه ؛ بل زعم العريف أن زوجه تركية خالصة لا تتكلم العربية إلا فى مشقة شاقة وجهد شديد ، وهى إذا أتيح لها أن تتكلم العربية التوى لسانها بها التواء شديداً ، وهى تؤنث المذكر ، وتذكر المؤنث ، وتفعل ببعض الحروف العربية الأفاعيل ؛ وزعم العريف أن لهذين الصبيين أختين قد بلغتا طور الشباب وظفرتا بحظ من جمال لا يتاح إلا للترك أو من يشبههم أو يقاربهم من الأوروبيين . وقد سمع سيدنا لكل هذا الكلام غير حافل به ولا آبه له ، وآية ذلك أنه لم يرد على العريف إلا بقوله : « ما أظنه يدفع أقل من عشرين قرشاً فى الشهر أجراً لتعليم ابنيه » .

وكان فى الكتاب صبى لم ينطلق مع التلاميذ ليصيب غداءه ، لأنه كان من الذين يحمل إليهم الغداء فى الكتاب ، وقد سمع حديث الأب إلى سيدنا وسمع حديث سيدنا والعريف عن الأب وابنيه وعن الأسرة كلها ، فوعى هذا كله فى صدره وحفظه فى نفسه ، ولم يكد يبلغ داره بعد أن صليت العصر حتى أعاد إلى أمه ما سمع من حديث ، وسألها عن هذه الأسرة ، فقالت باسمة : « إنها أسرة المأمور الجديد ، وستزورنا السيدة وابنتاها بعد حين ، فاحذر أن تقع عين إحداهن عليك . »

٢

ولم يرتفع الضحى من الغد حتى كان الصبي قد تعرَّف إلى زميليه فى الكتاب ، عرفه إليهما سيدنا ، لأنه كان يحب أن يؤلف بين أبناء الأسر التى تستمتع بحظ من الامتياز ، ولأن هذا الصبي كان حافظاً للقرآن مجوِّداً له فلم يتردد سيدنا فى أن يكلفه إقراء الصبي الأزهرى ؛ وقال له وقد أخذ بيده الصغيرة فوضعها على لحيته الغزيرة : « لقد وكلت إليك ذقنى ، فأحفظ هذا الصبي ما حفظت وأجد إحفاظه ، ولا تفضحنى عند أبيه الموظف الجديد الكبير ؛ وقدر أنى وكلت إليك عملا كنت خليقاً أن أنهض به أنا ، أو أن أكله إلى العريف . » وقد وجد الصبي فى نفسه شيئاً من الكبرياء ؛ فقد أصبح معلماً بعد أن كان متعلماً ، وأصبح مقرئاً بعد أن كان قارئاً ، ووجد فى نفسه شيئاً من الفرح والابتهاج لاتصال الأسباب بينه وبين هذين الزميلين المترفين اللذين يلبسان اللباس الأوربى ويضعان على رأسيهما الطربوش ، ولا يلبسان هذه الثياب الفضفاضة القذرة التى كان يلبسها التلاميذ من أهل المدينة ، واللذين ينتميان إلى أسرة تركية ولا ينحدران من هذه الأسر التى تأتلف

من التجار والفلاحين . وقد أقبل الصبي على عمله ، فطلب إلى تلميذه أن يتلو عليه ما حفظ من القرآن فى القاهرة ، ثم اتخذ هذا نفسه سبباً للسؤال عن كتاتيب القاهرة كيف تكون ، وعن سادة هذه الكتاتيب كيف يسيرون مع التلاميذ ، وعن مذاهب هؤلاء السادة فى تأديب تلاميذهم ووسائلهم إلى هذا التأديب ، والأدوات التى يصطنعونها فيه . وكان الصبي يسمع أحاديث تلميذه كلفاً بها متهالكاً عليها ، يكاد ينسى فى سبيلها ما وكل إليه من إقراء هذا التلميذ ، لولا أنه كان يذكر من حين إلى حين يده الصغيرة فى اللحية الغزيرة ، وصوت سيدنا الغليظ وقد تكلف الرقة والرفق ، وهو يلفته إلى أنه يكلفه عملا خطيراً كان خليقاً أن ينهض به هو أو أن يكله إلى العريف ؛ فكان ذلك يرده إلى القصد ويحمله على أداء الواجب . وكان النهار يمضى ساعة للقراءة وساعة للحديث ، ثم ازدادت الأسباب بين الصبي وزميله متانة واتصالا ، فكان الثلاثة يخرجون من الكتاب إذا صليت العصر ، فيذهبون معاً إلى بيت الصبي قليلا وإلى بيت الزميلين غالباً ؛ وكان البيت أنيقاً مترفاً فى نفس الصبي يملأ قلبه حين يدخله روعة وكبراً . كان قائماً على القناة ليس بينه وبين الماء إلا هذه الطريق الضيقة التى يسعى فيها الناس ودوابهم بين المدينة والقرية ، وقد انبسطت من وراء سوره المرتفع الذى تكسوه الأغصان الخضر والزهر النضر حديقة عميقة مترامية

الأطراف ، عن يمين وشمال ، تقوم الدار من ورائها مطمئنة لا ترتفع فى السماء إلا قليلا ، ولكنها تمتد فى الفضاء وتكثر فيها الحجرات ، وكان الذى يفجأ الصبي من أمر هذه الدار ويملأ قلبه رضاً وإعجاباً ، أنه كان إذا عبر إليها الحديقة العميقة ودخل الدهليز الذى ينبسط بين الحجرات ، لم يمش على أرض من تراب ، وإنما يمشى على أرض قد بسط فيها البلاط ؛ وكثيراً ما راعه أنه كان يرى الخادم تغسل هذه الأرض غسلا وتنقيها تنقية ، ولا ترش عليها الماء رشاً ليستقر ترابها فلا يثور . وكان مما يملأ قلب الصبي رضاً وإعجاباً أنه كان لا يكاد يدخل الدار مع زميليه حتى ينعطفوا إلى يمين ، ويأووا إلى حجرة خاصة لا يسكنها أحد من أهل الدار ، ولا يطرقها أحد غير هذين الصبيين ، قد خصصت لهما يلعبان فيها ، وجمعت لهما فيها أدوات كثيرة مختلفة غريبة للعب ، وأسندت إلى جدرانها كراسى ومجالس يستريح عليها الصبيان ومن يلاعبهما من الرفاق ؛ فهما لم يكونا يجلسان على الأرض ولا يلعبان فى الفضاء المنبسط أمام الدار ، ولا يتعرض لعبهما لضحك الكبار منه أو مشاركة الواغلين من الأطفال فيه ، كان لعباً مترفاً فى حجرة مترفة ليس للصبي بمثله عهد ؛ وكان ثلاثتهم إذا وصلوا إلى الدار لا يكادون يستقرون فى حجرتهم تلك حتى تلم ربة الدار وآنسة من الآنستين ، فيكون الحديث الرفيق والحنان الرقيق والدعابة

العذبة ، ثم يخلو الصبية بعد ذلك إلى لعبهم ، فينفقون فيه ما شاء الله من وقت يقصر أو يطول .

وكانت ربة الدار سيدة كريمة ، فقد تقدمت بها السن شيئاً ، ولكنها كانت حلوة الشمائل ، عذبة الحديث في لهجة عربية غريبة ، ضعيفة أشد الضعف ، ملتوية أعظم الالتواء ؛ وكان حديثها ذاك الملتوى المتعثر البطيء يسحر نفس الصبي ويملأ قلبه فتوناً ؛ فأما الآنستان فقد كانت كبراهما تفيدة رائقة الحديث ، شائقة الدعابة ، متكسرة اللفظ ، تتكلم فيخيل إلى السامع أن عهدها بالنوم غير بعيد ، وكانت على ذلك ماكرة حديدة اللسان ، لاذعة النكتة ، بطيئة الحركة ، قليلة النشاط ؛ وكانت أختها الصغرى إقبال جذوة من نشاط لا تنقطع لها حركة ولا يستقر لسانها في فمها ، وهي على ذلك حلوة المحضر ، مشغوفة باللعب ، لو أطلقت لها حريتها لما فارقت الصبية ولا زهدت في لعبهم ؛ ولكن الدار كانت منظمة أدق النظام وأشقه ، فلم يكن يتاح لهاتين الآنستين إلا قليل من فراغ بين حين وحين . وقد نعم الصبي بهذه الحياة وقتاً لا يذكر أطال أو قصر ، ولكنه يرى ذات يوم في الدار حركة غير مألوفة ، ويخيل إليه أن في الجو شيئاً لا يلبث أن يعرف ما هو ، فقد خطبت تفيدة ، وما هي إلا أسابيع حتى يقبل قوم من القاهرة ، وحتى تقام في الدار أعياد ، ثم يعود الزائرون من حيث أتوا وقد استصحبوا

تفيدة ، ففقدت الدار من جمالها وبهجتها شيئاً غير قليل .

والحياة مع ذلك ماضية فى طريقها فى هدوئها المتصل واطرادها الممل ، والصبى ناهض بواجبه ، يحفظ زميله القرآن ، ويشاركه فى اللعب ، ويخوض معه فى فنون الحديث ؛ ولكن محموداً يتحول من الكتاب إلى المدرسة المدنية ، فيفقد الكتاب بانصراف العفريت عنه من بهجته شيئاً غير قليل . ويخلو الصبى إلى زميله وتلميذه عثمان يعلمه ويلاعبه ، ولكن السأم يسعى بينهما ، وإذا بالصبى ينصرف عنه قليلا قليلا ، ويشغل شيئاً فشيئاً برفاق آخرين من أهل المدينة ، يعرضون عليه فنوناً جديدة من اللعب ، ويلقون إليه ألواناً طريفة من الحديث ، ويقرأون معه كتباً لا عهد لأبناء الكتاب بها ، ولا أرب لهم فى قراءتها ؛ والصبى مع ذلك يلقى رفيقيه المترفين فى داره حيناً وفى دارهما حيناً آخر ؛ ثم يسمع ذات ليلة أبويه يتحدثان فى شىء من الحزن وفى شىء من السخرية أيضاً بأن الضابط التركى القديم من ضباط الجيش قد سافر إلى القاهرة فأقام فيها أياماً ، ثم عاد ومعه سيدة تركية لم تبلغ الثلاثين بعد ، لها حسن رائع ، وجمال بارع ، وفتنة فاتنة ، وتسلط على الضابط الشيخ عظيم ، وأن تلك الدار المترفة الأنيقة التى كانت جنة من جنات النعيم ، قد أصبحت مستقراً للحزن والبؤس والشقاء ، قد أصبحت جحيما تصلى فيه أم البنين نار الحزن ولوعة الغيرة ، ويشقى فيها هؤلاء

الثلاثة بما يرون من حزن أمهم وبؤسها وبكائها المتواصل واعتكافها في حجرة لا تبرحها إلا أن تكره على ذلك إكراهاً . كما يشقون بهذا النعيم العظيم يستمتع به الضابط وزوجته الشابة في طرف من أطراف الدار . كانا يستخفيان بسعادتهما أول الأمر فينعمان من وراء الأبواب المغلقة والأستار المسدلة، ولكن السعادة جمحت بهما حتى تجاوزا القصد ؛ وأكبر الظن أن شقاء الأشقياء، هو الذى أذكى سعادة السعداء . وكأن الزوجين السعيدين قد رأيا في اعتكاف تلك المعتكفة وبكائها المتصل ، وفي هذه الوجوه العابسة الكئيبة من حولها ، وفي خفوت تلك الأصوات التي كانت تملأ الدار فرحاً ومرحاً ، وفي سكون تلك الحركات التي كانت تملأ الدار بهجة وسروراً ، كأنهما رأيا في هذا كله احتجاجاً على ما أتيح لهما من سعادة، وإنكاراً لما سيق إليهما من نعيم ؛ فقبلا التحدى ، وأظهرا ما كانا يضمران ، وأعلنا ما كانا يسران، وظهرت سعادتهما وقحة، مسرفة في القحة: لا تتحفظ ولا تحتشم ولا ترجو لشيء وقاراً ؛ فالقبل تختلس في هذه الزاوية أو تلك في غير احتياط أول الأمر ، ثم هي لا تختلس ولا يستخفى بها ، وإنما يتهاداها الزوجان أمام هذه الكاعب البائسة، وبمنظر من هذين الغلامين الشقيين ، وغير بعيد من هذه الأم التعسة المحزونة ؛ ثم تتجاوز القحة حدودها ، ويتعمد الزوجان المفتونان إيذاء هذه المرأة الكئيب ، فينتهزان الفرص ليظهرا لها

سعادتهما بشعة ليس لها حظ من تحفظ أو استحياء . ويتحدث الناس ذات يوم بأن هذه الأم البائسة عليلة لا تخرج من حجرتها ولا تترك فراشها ، ثم يأتى النبأ ذات صباح بأنها قد فارقت الحياة ، فأراحت واستراحت وتركت فى قلب أبنائها سعيراً أى سعير . وقد استقرت هذه الأم البائسة فى قبرها المتواضع من وراء النهر ، وجلس صاحب الدار للمعزين يستقبلهم كما تعود الناس أن يفعلوا ؛ وقد مرت الليلة الأولى كما تعودت ليالى العزاء أن تمر : أقبل المعزون فسلموا وجلسوا وسمعوا القرآن، وانصرف فوج منهم ليخلفه فوج آخر ، ثم ختمت القراءة حين أوشك الليل أن ينتصف . ثم أقبل اليوم الثانى وأقبل معه القراء يتلون القرآن ، وأقبل الناس يعزون ويستمعون ويخوضون فى مختلف الأحاديث ، وإنهم لفى ذلك بعد أن صليت العصر ، وإذا امرأة شابة تخرج من الدار وتتوسط جمع الناس هادئة مطمئنة رزينة الخطو ، سافرة لم تلق على وجهها نقاباً ، وقد اتخذت فى إحدى يديها حقيبة صغيرة ؛ فلما توسطت الجمع وجم الناس ، وهم صاحب الدار أن ينهض ولكن الوجوم أخذه هو أيضاً فأثبته فى مكانه ، وارتفع صوت تفيدة هادئاً رزيناً ، فقطع المقرئ قراءته واستمع لها الجمع كأن على رؤوسهم الطير ، وإذا هى تقول : « من ظن منكم أنه أقبل للتعزية والمجاملة فليغير ذات نفسه ودخيلة ضميره ، فليس هذا حفل

عزاء وإنما هو حفل فرح وابتهاج . إن هذا الرجل الذى تعزونه قد قتل امرأته وابتهج بموتها ، لم يرع حرمتها ، ولم يرع حياء ابنته الكاعب ، ولم يرع صبا غلاميه الصغيرين ، وإنما ازدرى هذا كله فى سبيل سعادته بزوجه الجديدة ؛ فكان يداعبها ويلاعبها ، وينال من مداعبتها وملاعبتها فى الجهر ما لا يناله الرجل الكريم ذو المروءة إلا سرًّا ؛ وكنت فى القاهرة لا أعلم من ذلك شيئاً ، فلما أقبلت لدفن أمى سمعت ، فأنكرت أذناى ولم يصدق قلبى ؛ ولكنى أشهد وأشهدكم أنى رأيت ورأى إخوتى ، وفيهم كاعب وصبيّـان ، هذا الرجل يداعب امرأته الشابة ويلاعبها راضياً مغتبطاً مسروراً ولم يمض على دفن أمنا إلا يوم وبعض اليوم ؛ فإن رأيتم بعد ذلك أن هذا الرجل محتاج إلى تعزيتكم فأقيموا وإلا فانصرفوا راشدين » .

ثم تحولت عن الجمع فلم تدخل الدار ، وإنما أخذت طريقها إلى المحطة لتركب القطار الذى يحملها إلى القاهرة .

ولست أدرى ماذا كان من أمر الجمع المحتشدين بعد هذه الفضيحة ؛ ولكنى أعلم أن استقبال المعزين لم يبلغ أيامه الثلاثة ، وأن هذا الضابط التركى القديم من ضباط الجيش لم يستطع أن يقيم فى المدينة إلا ريثما يدبر أمر سفره ، وأنه ارتحل ذات يوم بما كان يحيط به من نعيم وجحيم ، فانقطعت بينه وبين المدينة الصلات والأسباب ، لم يسمع أهل المدينة عنه شيئاً ولم يسمع هو عنهم شيئاً .

٣

ومضت الحياة فى طريقها هادئة مطمئنة ، تعبث بالناس ويعبث الناس بها ، ويعفّى ما يقبل من أحداثها على آثار ما أدبر من الخطوب . وقد هاجرت أسرة الصبى من المدينة إلى أعلى الأرض ، وهاجرت أسر أخرى إلى أدنى الأرض ، وشغلت كل أسرة بنفسها عن غيرها ، وشغل كل واحد من أبناء الأسرة الواحدة بشأنه الخاص عن شؤون أهله وذويه ؛ ومضت أعوام تبعتها أعوام ، وبلغ الصبى طور الشباب بعد أن خاض إليه غمرات الخطوب ، ولكنه يحس ذات مساء بين درسين من دروس الجامعة القديمة يداً تمس كتفه ، وصوتاً يمس أذنه ، وتقع فى نفسه هذه الجملة : « ألا تذكرنى ! لقد كنت معك فى الكتاب أنسيت العفريت ! » .

بلى ، لم أنس العفريت وهيهات أن أنساه ، وقد استأثر من قلبى ذاك الناشىء بمكان ممتاز لم يبلغه أحد من إخوته كما لم يبلغه أحد من رفاق الصبى أولئك الذين عرفتهم فى الكتاب أو عرفتهم خارج الكتاب ، أولئك الذين اتصلت بينهم وبينى أسباب المودة أيام الصبا فكانت عشرتى لهم طويلة أو قصيرة .

بلى لم أنس العفريت ، وقد حدثت نفسى غير مرة حين هبطت
إلى القاهرة لأطلب العلم فى الأزهر الشريف ، بأن من الممكن
أن ألقاه أو ألقى أخاه فأجدد من أسباب المودة ما رث ، وأصل
منها ما انقطع ، وأنقل من صباى فى المدينة إلى القاهرة طرفاً
أستبقيه وأنميه ، وأجد فى استبقائه وتنميته رضا القلب ومتعة
النفس وسعادة الضمير ؛ ولكنى اختلفت إلى الأزهر أعواماً
وأعواماً ، وعرفت فيه كثيراً من الصبية والشباب والشيوخ ، دون
أن ألقى العفريت أو أخاه أو أسمع عنهما قليلا أو كثيراً ؛ ولم
أبح لنفسى أن أسأل عنهما أحدهما أو كليهما ، ولو قد سألت
لكان من الممكن أن أصل إلى هذا الأزهرى الذى كنت أحفظه
القرآن أيام الصبا ، وأن أصل من طريقه إلى أخيه العفريت .
لم أبح لنفسى أن أسأل ، وما أقل ما كنت أبيح لنفسى السؤال !
وما أكثر ما صرفنى الحياء عن السؤال والاستقصاء !

ثم أنفقت فى الجامعة عاماً وعاماً وعاماً ثالثاً ، ولقيت من
الطلاب من درس فى الأزهر ، ومن تعلم فى المدارس المدنية على
اختلافها ، وخطر لى غير مرة أن أسأل عن العفريت ما خطبه
وأين يكون ؟ ولكنى لم أبح لنفسى هذا السؤال ، فحفظت
فى قلبى من ذكر العفريت ما كنت أردده على
نفسى حيناً بعد حين ، أختصها به ولا أظهر عليه أحداً
من الناس ، حتى أقبل علىّ العفريت ذات مساء فمست يده

كتفى، ومس صوته أذنى ، ومست نفسه نفسى ؛ واستأنفنا فى الشباب حياتنا كما ألفناها فى الصبا . كان حديث عهد بالجامعة، يدخلها فى أول العام الذى كنت أريد أنا أن أتركها فى آخره ، فكنا نجتمع وجه النهار ، لا فى داره تلك ، وأين كنا من داره تلك! ولكن فى تلك الحجرة المتواضعة التى كنت آوى إليها أثناء الطلب ؛ ولم يخطر له قط أن يدعونى إلى داره ، ولم يخطر لى قط أن أسأله عن هذه الدار ؛ ولقد هممت أن أسأله عن إخوته فأجابنى من طرف اللسان ، فلما استزدته راغ عنى بالجواب وانتقل إلى حديث آخر ؛ فأحسست أنه يستحى من أسرته ، فلم أسأله عنها بعد ذلك . كان قد تخرج فى إحدى المدارس الفرنسية ، وظفر بشهادة الثانوية والتحق بالجامعة ؛ وكنت أحاول أن أتعلم هذه اللغة الأجنبية وأبذل فى ذلك جهوداً مختلطة أشد الاختلاط ، منها الموفق ومنها غير الموفق ، وكان هو مشغوفاً بالترجمة من هذه اللغة إلى اللغة العربية ، فكان يقرأ علىّ بعض ما كان يترجم ، وكان يقرأ لى ما كنت أريد أن أعرف من الأدب الفرنسى . وقد أنسى أشياء كثيرة ، ولكننى لن أنسى أنه قرأ لى أساطير لافونتين ، وقصة «كانديد» . وأحاول أن أذكر كيف قضينا أول الليل بعد خروجنا من الجامعة ذات يوم وأين قضيناه ، ولكنى لا أجد إلى ذلك سبيلا ، وإنما أذكر أنى صرفت خادمى وبقيت معه على أن يردنى إلى دارى بعد

أن نفرغ مما أردنا إليه ؛ ولست أعرف ما هذا الذى أردنا إليه، ولكنى أعرف أن الليل بلغ نصفه ، وأنا كنا بعيدين عن دارى قريبين من داره فى حى من الأحياء الوطنية المتواضعة ، فقال لى فى صوت متكسر : « لننفق سائر الليل معاً فنقرأ ما أطقنا السهر ، ثم تعود إلى دارك فى ضحى الغد . » وقد أجبته إلى ما أراد ، فلرنا فى حارات ملتوية وانتهينا إلى دار متواضعة حقيرة ، وأوينا من هذه الدار إلى حجرة بائسة قد ألقى عليها حصير بال ، وألقى على الحصير وسادة ولحاف ؛ فى هذه الحجرة قرأ لى جزءاً عظيما من « كانديد » ، ولم نتم إلا بعد أن جاوز الليل ثلثيه، فلما كان ضحى الغد عدت إلى دارى واستبقيته معى إلى آخر النهار ، وفى تلك الليلة فهمت مصدر هذا الحياء الذى منعه أن يتحدث إلى من أمر أسرته بشىء .

ومضت أشهر الصيف التى يفترق فيها الطلاب ، وأقبلت أشهر الخريف التى يلتقى فيها الطلاب ، ولقيت صاحبى فيمن لقيت ، ولكنه كان لقاء قصيراً ؛ فقد سافرت إلى فرنسا فى خريف ذلك العام ، وودعت صاحبى فى القطار . وأشهد ما نسيته أثناء ذلك العام الذى قضيته فى فرنسا ، وأشهد لقد عدت إلى مصر حين دعتنا الجامعة إلى أن نعود قبل أن نتم الدرس وفى نفسى أنى سأجد عند صاحبى هذا عزاء عن هذا الدرس المقطوع ؛ ولكنى أصل إلى القاهرة ، وأسأل عن صاحبى ، فأعلم أن حمى

التيفوئيد قد أسلمته إلى الموت أثناء الصيف .

وما أريد أن أصور للقارئ ما وقع فى نفسى من حزن ولوعة ؛ فإنى لم أكتب هذا الحديث لشىء من هذا ، وإنما أذكر أنى سعيت مع رفيقين لى ذات يوم بعد أن صليت العصر إلى قرافة المجاورين حيث قيل لى إنه دفن ، وأنى أنفقت مع رفيقى وقتاً طويلا وجهداً ثقيلا نلتمس قبره لنهدى إليه التحية ولنضع عليه شيئاً من زهر ؛ فلم نهتد إلى هذا القبر ؛ فعدنا يائسين وقد ألقينا التحية إلى قبور القرافة كلها ، وألقينا الزهر على قبر ما فى قرافة المجاورين ؛ وكنت كئيباً كاسف البال مظلم النفس معقود اللسان ، وكان أحد رفيقىّ يهوّن علىّ وينشدنى قول الشاعر العربى القديم :

لقد لامنى عند القبور على البكا
رفيقى لتذراف الدموع السوافك

فقال أتبكى كل قبر رأيته
لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

فقلت له إن الشجى يبعث الشجى
فدعنى فهذا كله قبر مالك

٦

صفاء

« كان ذلك ممكناً فى تلك الأيام السود ، فأما الآن فقد يسر الله الأمور ،وأتاح لنا أن نخرج من ظلمة البؤس والشقاء ؛ إلى نور النعيم والرخاء ، فلست أحب أن أخوض ، ولا أن تخوضى فى هذا الحديث . » وهمت حنينة أن تتكلم ولكن ابنها نصيفاً أعرض عنها بوجهه ، ونأى عنها بجانبه ، وأشعل سيجارته فى شىء من أنفة ، ونهض فى شىء من كبرياء ومضى أمامه فترك الحجرة وترك الدار كأنه لم يخلف فيهما أحداً . وظلت حنينة صامتة مبهوتة ، ثم كفكفت دموعاً كانت تريد أن تسيل ؛ ثم حزمت أمرها وقدرت فى نفسها أنها ستراجع ابنها فى هذا الحديث ، ونهضت فأقبلت على أعمال الدار كأن لم يكن بينها وبين ابنها شىء .

وقد استوفيت فيما أظن ما ينبغى أن يستوفيه الكاتب حين يريد أن يستأنف قصة خطيرة أو يسيرة ، فألقيت إلى القراء هذه الجملة الغامضة التى لا يُذكر فيها الفاعل ولا المبتدأ إلا متأخراً ، لأثير فى نفوسهم هذه الغرابة التى تدعو إلى الاستطلاع ؛ ثم ذكرت بعد هذه الجملة اسم حنينة وابنها نصيف لتزداد

حاجة القراء إلى هذا الاستطلاع ؛ ثم فرقت بين الأم وابنها على هذا النحو الغريب المريب ، فبينهما حديث لا يريد الفتى أن يتصل وتحرص الأم على أن يتصل ، وهذا الحديث يمس الماضى المنكر الذى خرجت منه الأسرة ، ويريد الفتى أن تنساه ، وتريد الأم أن تفى له وتحرص عليه ، وآية ذلك أنها تكفكف الدمع وتقدر فى نفسها أنها ستعود إلى الخوض فيه متى لقيت ابنها حين يقبل المساء ، أو حين يسفر الصباح ، وأكبر الظن أنها تؤثر أن تتحدث إلى ابنها فى أول النهار حين يجلس إلى فطوره هادئ النفس مستريح الجسم فارغ البال ، لم يتكلف من أعمال يومه الجديد شيئاً ، ولم يتح له بعدُ أن يذكر من أعمال أمسه القديمة شيئاً ؛ ذلك خير من التحدث إليه فى المساء ؛ فهى قلما تخلو إليه فى المساء لأنه يروح إلى داره عجلا ، فيصيب شيئاً من طعام مع الأسرة كلها ، ثم ينصرف عنها عجلا ليلقى أترابه وأصحابه ، فيسمر معهم شطراً من الليل ، ويعود وقد بسط النوم جناحيه على الأسرة كلها فأغرقها فى سبات عميق .

ومن حق القارئ بعد هذا كله أن يعرف حنينة ونصيفاً ، وأسرة حنينة ونصيف ، وهذا الماضى القاتم الذى يكره الفتى أن يستبقى منه شيئاً ، وتحرص الأم على أن تستبقى منه بعض الأشياء .

ولست أكره أن أؤدى للقارئ حقه فى هذا إن قبل أن ينتقل معى فى الزمان والمكان جميعاً ؛ وما أطلب إليه أن ينتقل معى إلى زمان مسرف فى القدم ، أو إلى مكان مسرف فى البعد ، وإنما نريد أن نعود إلى أول هذا القرن ، وأن نترك القاهرة إلى مدينة من مدن الأقاليم فى مصر الوسطى . فقد ينبغى لكل قصة أن يكون لأحداثها زمان ومكان يختارهما الكاتب أو تختارهما الأحداث نفسها . والشيء الذى أؤكده للقارئ هو أنى لم أختر ولم أكن أستطيع أن أختار زمان هذه القصة ومكانها ، كما أنى لم أختر ولم أكن أستطيع أن أختار أشخاص هذه القصة وأحداثها ؛ وإنما اختارت طبيعة الأشياء هؤلاء الأشخاص ، وأجرت طبيعة الأشياء عليهم ما أجرت من الأحداث ، وأرادت أن يكون هذا فى آخر القرن الماضى وأول هذا القرن ، وأن أشهد القصة وأتأثر بها أشد التأثر وأعمقه ، وأن أدخرها فى نفسى لشيء لم أكن أعرفه حين شهدت القصة وادخرتها ، وقد أخذت أعرفه الآن حين بدأت أملى هذا الحديث ؛ فأنا إنما شهدت القصة وادخرتها لأتحدث بها إلى قراء هذا السفر ، بعد أن مضى على أحداثها ؛ ما يقرب من نصف قرن .

بل أكاد أقطع بأنى لم أختر ، ولم أكن أستطيع أن أختار ، أن أتخذ هذه القصة موضوعاً لهذا الحديث ، وإنما هى التى اختارتنى لتصل من طريقى إلى القراء ؛ ولست أستطيع أن أبين

لذلك سبباً ؛ لأنى لا أستطيع ، والقارئ نفسه لا يستطيع ، أن أسأل القصة عن السبب الذى من أجله اختارت أن تذاع فى هذه الأيام ، والذى من أجله اختارت أن تذاع من طريقى أنا ، ومن طريق هذه المجلة التى أكتب فيها .

وإنما أرى أنى قد فرغت أياماً وأياماً ، لموضوع من موضوعات الأدب الفرنسي ، وجعلت أدرسه وأستقصيه لأتخذه موضوعاً لهذا الحديث ، وبلغت من ذلك أكثر ما كنت أريد ، إن لم أكن بلغت كل ما كنت أريد ، وجلست إلى صاحبى لأملى عليه ما قدرت إملاءه ؛ ولكن صاحبى لا يسمع منى حديثاً عن شىء يتصل بالأدب الإفرنسى من قريب أو بعيد ، وإنما يسمع منى بدء هذا الحديث، ويهم أن يراجعنى ، كما همت حنينة أن تراجع نصيفاً . ولكنى أعرض عنه بوجهى ، وأنأى عنه بجانبى ، أشعل سيجارتى فى شىء من حزم ، وأمضى فى الإملاء، فيمضى هو فى الكتابة ؛ ويظهر أمامى أشخاص هذه القصة مزدحمين أشد الازدحام ، ملحين أعظم الإلحاح ، كلهم يريد أن يسبق إلى مكانه من هذا الحديث ، كأنما طال عليهم النوم حتى سئموه ، وثقل عليهم النسيان حتى ضاقوا به ؛ فهم يريدون أن يستيقظوا ، وهم يريدون أن أذكرهم أنا، وأن يذكرهم القراء . وأن يستردوا بذلك شيئاً من حياة ، وإن كانت حياتهم تلك الأولى لأهون وأشقى من أن يفكر فيها أصحابها، ومن أن

يحرصوا على أن يستردوا منها نصيباً قليلا أو كثيراً .

وهؤلاء الأشخاص كثيرون بعض الكثرة ؛ فلا بد من أن أصطنع شيئاً من النظام الحازم لأردهم إلى بعض القصد ، ولأظهرهم فى أماكنهم المقسومة لهم من هذا الحديث. وأماكنهم هذه لم أقسمها أنا لهم ، وإنما قسمتها لهم حياتهم الأولى نفسها ؛ فهم يؤلفون أسرتين قبطيتين من أسر الريف ، كانتا تعيشان متجاورتين قد أنشأ الجوار بينهما ما ينشئ عادة بين الجيران من المودة والألفة ، ومن العشرة المتصلة والاختلاط الدائم فى غير تكليف ولا عناء ، ومن هذا الاشتراك فى لذات الحياة وآلامها ، وفى مسرات الحياة ومساءاتها ، وفى هذه الأحداث التى تحدث ، والخطوب التى تلم ، والنوائب التى تنوب .

وكانت أسرة المقدس ميخائيل تادرس فى دار ليست بالمسرفة فى السعة ، وليست بالمسرفة فى الضيق ، وإنما هى دار متوسطة ، تألفت من حجرات قليلة ، لا يظهر عليها الثراء ، ولا يظهر عليها الضر ، ولا يظهر عليها ما يلفت إليها أحداً . كانت داراً متواضعة وإن لم تكن حقيرة ، وكانت تقوم فى أول الشارع مما يلى القناة على منحدر يسير يكلف الساعى إليها قليلا من الجهد ، فينحدر إليها إن جاء من هذه الناحية ، ويصعد إليها إن جاء من تلك الناحية ، ولا يسعى إليها سعياً هيناً على كل حال ؛ وكان المقدس ميخائيل صاحب تجارة يسيرة هينة ،

قد اتخذ له حانوتاً يبعد عن داره بعض البعد ، يبيع فيه سقط المتاع من هذا الخرز الذى يتخذ الفقراء منه عقوداً يتحلى بها النساء والفتيات ، ومن هذا الزجاج الملون الذى يتخذ النساء منه أساور أو دوائر مفرغة يدخلن فيها سواعدهن ، أو يدخلنها فى سواعدهن ، ويبهرن أنفسهن كما يبهرن الرجال بألوانها الزاهية ورنينها الحلو ، وشيئاً من الأقمشة الرخيصة التى يتخذ منها نساء الريف ثيابهن حين يتفضلن ، وزينتهن حين يتبرجن .

وكانت لحانوته شهرة خاصة بهذه العصابات المطرزة التى كان النساء يدرنها حول رؤوسهن ، فيفتن بها الرجال ويسحرن بها عيون الشباب ؛ وكان المقدس ميخائيل يفيد من تجارته هذه اليسيرة ما يتيح له أن يكفل لأهله حياة إن لم تكن رخية كل الرخاء فلم تكن ضيقة كل الضيق ، وإنما كانت شيئاً بين ذلك ، يسمح لهذه الأسرة أن ترى نفسها من الطبقة المتوسطة وأن تطمح إلى ماتطمح إليه هذه الطبقة من الآمال التى كانت فى ذلك الوقت متواضعة أشد التواضع .

ولم تكن هذه الأسرة ضخمة ولا كثيرة العدد ، وإنما كانت تأتلف من ميخائيل ، وزوجه حنينه ، وابنهما نصيف ، وابنتهما صفاء ؛ وواضح أن هذا الاسم لم يكن ينطق على هذا النحو الفصيح ، وإنما كان ينطق به مقصور الألف لا ممدودها ، وكان النطق به يثير فى نفوس السامعين أنه مستعار من تلك

الغدائر المعدنية التى كان النساء يصلنها بشعورهن ويرسلنها على ظهورهن ، ويُسمع لها حين يقمن ويقعدن ويسعين صليل يعجب الآذان .

وقد طمع ميخائيل أن يرفع ابنه عن المنزلة التى كتبت له هو فى الحياة ، فلم ينشئه فى التجارة ليخلفه فى الحانوت حين تقعد به السن ، وإنما أرسله إلى المدرسة المدنية ، بعد أن اختلف إلى الكتاب القبطى عاماً وبعض عام ، وأضمر فيما بينه وبين نفسه ألا يكتفى بالمدرسة الابتدائية ، وأنه يرسله إذا استطاع إلى القاهرة ليتعلم فى بعض مدارسها ، وليكون موظفاً من موظفى الحكومة ، وليسلك بنفسه طريقاً جديدة غير الطريق التى سلكها هو وسلكها أبوه من قبله .

وطمعت حنينة فى أن ترفع ابنتها عن المنزلة التى قسمت لها هى فى الحياة ، فأرسلتها إلى « المعلمة » كما كانت الأمهات فى الطبقة المتوسطة يرسلن إليها بناتهن ، ليتعلمن عندها فنوناً من التطريز والتدبيج ، والتأنق فى التفصيل وصناعة الأزياء .

وقد اختلف الصبى إلى المدرسة ، واختلفت الصبية إلى المعلمة ، ورضيت الأسرة عن نفسها وعن تربيتها لابنيها أعواماً . وظفر الصبى بالشهادة الابتدائية بعد جهد ، وأخذت الصبية من فنون المعلمة ما استطاعت أن تأخذ ؛ ونظرت الأسرة فإذا هى مضطرة أن ترسل الصبى إلى القاهرة ، وإلى أن تمسك الصبية

فى الدار . والله يعلم ما تكلف المقدس ميخائيل من الجهد ليدبر ما يحتاج الفتى إليه من النفقات ، وما احتملت حنينة من الحزن لفراق ابنها الوحيد . وقد ألحق الفتى بمدرسة ثانوية ، فأقام فيها ما شاء الله أن يقيم ، عاماً وعاماً وعاماً دون أن يصيب فيها نجحاً ، وإنما هى السنة الأولى يقيم فيها العام بعد العام ، ثم تضطر المدرسة إلى فصله لكثرة ما أخفق ، فيلحق بالمدرسة القبطية الكبرى التى كانت فى ذلك الوقت تتلق من تفصلهم المدارس الحكومية من الشباب المخفقين ، أو من تحول السن بينهم وبين الالتحاق بالمدارس الحكومية ، أو من تقصر أيدى آبائهم عن أجور التعلم فى مدارس الدولة ، وتطول مع ذلك آمال آبائهم ، فيأبون ألا أن يتعلم أبناؤهم حتى يبلغوا الشهادة الثانوية ، لعلهم أن يجدوا لأنفسهم مكاناً فى مدرسة من المدارس العالية ، أو عملا فى ديوان من الدواوين. وقد أقام نصيف فى المدرسة الحرة عاماً وعاماً ولكنه لم يصب فيها نجحاً كما لم يصب فى المدرسة الحكومية نجحاً ، وثقلت النفقة على أبيه ، وثقل الحزن على أمه ، وضاق الفتى بأبيه وأمه ونفسه أيضاً ، وإذا هو يقترح على أبويه ذات عام أن يتحول عن التعلم الثانوى الذى لم يخلق له ، إلى تعلم آخر يسير قريب ، لا يحتاج إلى كثير من ثقافة ، ولا إلى إلحاح فى عمل ، ولا إلى فضل من جهد ، ولا إلى طويل من وقت ، وإنما هو عام أو بعض عام ، ثم يتقدم الطالب

إلى الامتحان ويظفر بالدبلوم ، ويشغل منصباً من مناصب الدولة . وكذلك التحق الفتى بمدرسة التلغراف، وما هى إلا أن ينفق فيها الفتى عاماً أو أقل من عام ، ثم يتقدم للامتحان فيصيب ما أراد من نجح ، ويعود إلى أهله ومعه الدبلوم قد لفه لفاً أنيقاً ، ووضعه فى حرز أنيق اتخذ من الصفيح . وجعل الأب ينظر إلى الدبلوم يحاول أن يقرأ ما فيه ، وجعلت الأم تنظر إلى الدبلوم تعجب بزينته، واختصم الأبوان بعض الاختصام أيهما يحتفظ بهذه العلبة من الصفيح ، أتدسها الأم بين ثيابها ، أم يخفيها الأب فى درج من أدراج مكتبه القديم؛ ولكن المهم هو أن المقدس ميخائيل كان قد بلغ من الجهد أقصاه، فأنفق أكثر مما كانت تجارته تغل عليه ، واحتمل من المشقة أكثر مما كانت سنه تستطيع أن تحتمل، وباع فى سبيل هذا الفتى ما كان عند زوجه من الحلى المتواضع ، واضطر الأسرة إلى شىء من الفقر الضيق البغيض الثقيل الذى لا يطاق ، لولا شىء من فسحة الأمل . ولم يدرك الفتى ما أدرك من نجح حتى كان المقدس الشيخ مضطراً إلى أن يقعد فى داره ، وينتظر الرزق من هذا المرتب الضئيل الذى كانت الدولة تجريه حينئذ على الموظفين فى البرق أول ما ينهضون بأعمالهم .

وكانت الدولة بخيلة حقاً فى تلك الأيام؛ فقد كان حامل الدبلوم يلحق بمكتب من مكاتب البرق على سبيل التجربة

والتمرين ، ويؤجر فى أثناء ذلك ثلاثة جنيهات فى الشهر ، لا تحسب له جملة ، وإنما تحسب له مياومة أثناء التمرين، عشرة قروش فى اليوم لاتزيد . ولم يكن حامل الدبلوم حرًّا فى اختيار مكتب البرق الذى يعمل فيه ؛ ومتى كان عمال الدولة وموظفوها أحراراً فى اختيار المكاتب التى يعملون فيها ؟ إنما كانت الدولة ترسل هؤلاء الموظفين والعمال حيث تشاء وحيث يقتضى النظام أن يرسلوا ، فأرسل الفتى إلى أقصى الصعيد ، وأقامت أسرته فى أدناه ، وجعل الفتى يقبض أجره آخر الشهر ، فيرسل نصفه إلى أسرته لتعيش ، وينفق نصفه الآخر على نفسه . وعلم الفتى وعلمت أسرته أن الآمال لا تصدق أصحابها دائماً ، وإنما تكذبهم فى كثير من الأحيان ؛ فقد ظفر الفتى بالدبلوم وشغل منصباً من مناصب الدولة ، وأصبح فرداً ممتازاً من هذه الطبقة الممتازة، طبقة الموظفين ، ولكنه ما زال فقيراً بائساً محتاجاً ، وما زالت أسرته متوسطة ترد إلى الفقر يوماً بعد يوم ، وتدفع إلى الضيق عاماً بعد عام ؛ والفتى بعد ذلك فرد ممتاز من طبقة ممتازة، والامتياز يكلف أصحابه كثيراً من المال ؛ فلا بد من أن يعيش الفتى بين أترابه عيشة ملائمة ، ومن أن يتخذ من الزينة ما يلائم طبقته ، ومن أن يحيا حياة لا ينظر إليها أترابه فى شىء من الاستخفاف به أو الاشفاق عليه ؛ وكان هذا كله يرهق الفتى من أمره عسراً ، وربما اضطره بين حين وحين إلى ألا

يرسل إلى أبويه ما تعود أن يرسل إليهما من النقد ، أو أن يرسله إليهما منقوصاً ؛ فكان هذا يحفظ الأسرة ويغيظها ويضنيها ؛ فلم تكن حاجتها إلى الحياة الملائمة بأقل من حاجة الفتى ، والفتى وحيد ، وهى أسرة مؤلفة من أشخاص ثلاثة ، فحقها أن يرسل إليها أكثر المرتب ، وأن يكتفى الفتى بأقله ؛ فكيف إذا لم يرسل إليها إلا أقله ! وكيف إذا لم يرسل إليها شيئاً ! وهى بعد ذلك قد أفنت عمرها وجهدها وكل ما ملكت فى سبيل هذا الفتى ؛ فانظر إلى الأبناء كيف يجحدون حقوق الآباء ، وانظر إلى الشباب كيف يكفرون بنعمة الشيوخ ، وانظر إلى هؤلاء الفتيان الناشئين كيف يؤثرون أنفسهم بالخير ويختصونها باللذات ويتركون آباءهم وأمهاتهم وأخواتهم يشقون بالنقص فى الأموال والثمرات ، بل يشقون بالبؤس والجوع والحرمان . وكذلك أنفقت الأسرة بعد نجح ابنها فى الامتحان وظفره بالمنصب أعواماً ، ذاقت فيها من البؤس المادى والمعنوى ما لم تذقه حين كان الفتى صبياً يختلف إلى المدرسة الابتدائية ، أو غلاماً يختلف إلى المدارس فى القاهرة .

أما الأسرة الأخرى فأسرة المعلم يونان . كان زعيمها كاتباً متواضعاً فى دائرة من دوائر الترك ، ينفق نهاره عاكفاً على دفاتره ، أو محاسباً للناظر ، أو مراقباً للمعاون ؛ ويعود إلى أهله آخر النهار راضياً عن نفسه ولكنه متعب مكدود ، فلا يكاد يصيب معهم

شيئاً من الطعام ويسمر مع جاره شيئاً من سمر، حتى يأوى إلى مضجعه وقد بلغ الإعياء به أقصاه ؛ ثم لا يكاد الصبح يتنفس حتى يراه فى الطريق العامة غادياً على عمله فى الدائرة أو فى الحقول . وكان الأجر الذى يصيبه من هذا العناء قليلا ضئيلا لا يكاد يقيم الأود لأسرة تألفت من ثلاثة أشخاص ، هم المعلم يونان ، وزوجته مرجانة ، وابنهما عبد السيد .

وكان المعلم يونان رجلا متواضعاً ، لا يرفع نفسه عن طبقته، ولا يحاول أن يرفع ابنه عن هذه الطبقة ، وإنما حاول أن يعلم ابنه مهنته هو، ليكون كاتباً فى الدائرة، كما كان هو كاتباً فى الدائرة ، وكما كان أبوه من قبله كاتباً فيها أيضاً . وكان أقصى همه أن يحسن الصبى الأخذ عنه والاقتداء به ، حتى إذا أدرك أول الشباب استطاع أن يعينه على عمله ، وأن يلتفت إليه المأمور لعله أن يرضى عنه ويعطف عليه ؛ فيأجره قرشين أو قروشاً فى اليوم تعين الأسرة على احتمال أعباء الحياة . ولكن الصبى لم يكن ذكى القلب ، ولا محبًّا للعمل، وإنما كان كلاًّ خامداً، يؤثر اللعب حين تسنح له فرصة اللعب ، فإن لم تسنح له آثر حياة هادئة هى إلى الذهول أقرب منها إلى أى شىء آخر ؛ وكان ذلك يغيظ أباه ويحفظه ويدفعه أن يقسو عليه أحياناً؛ ولكنه كان وحيد أبويه، فكان المعلم لا يعنف به إلا ليرق له ، ولا يشق عليه إلا ليرفق به .

والسن تتقدم بالمعلم حتى يحس الضعف عن النهوض بأعبائه ، والفتى يتقدم فى العلم بمهنة أبيه متباطئاً متثاقلا ؛ حتى إذا اضطر الشيخ إلى القعود فى داره كان الفتى أجهل وأكسل من أن يقوم مقامه ، فلم تستبقه الدائرة إلا رعاية لحق أبيه ورفقاً بأسرته ، ولم تمنحه من أجل ذلك إلا نصف ما كانت تمنح أباه من الأجر .

واضطرت مرجانة أن تبرح الدار ، وتسعى بعض السعى على شيخها القاعد لترزقه ، وعلى ابنها الخامد لتعينه ؛ فجعلت تسعى إلى القرى القريبة تشترى من أهلها ما يريدون أن يبيعوا من جبنهم وزبدهم ، تحمل فى ذلك قصعة ضخمة ، وتغطيه بشيء من العشب الأخضر الرطب يحفظ عليه رطوبته ويجذب إليه العيون ، وتطوف بذلك على بعض البيوت ، فتبيعه فيها بما يتيح لها شيئاً من ربح يتم لزوجها وابنها ما يحتاجان إليه .

وقد سعت الأسرتان المتجاورتان فى طريق واحدة إلى الضيق ، ثم إلى الضيق الشديد ؛ ثم إلى الإعدام والحرمان ، فازدادت الصلات بينهما قوة ، وفرغ الشيخان القاعدان للبطالة والحديث . وجعلت مرجانة وحنينة تلتقيان حين يسفر الصبح وحين يتقدم النهار ، تتقارضان المنافع وتتعاونان على أثقال الحياة ، وتتجاذبان أطراف الحديث كما يقال ، وجعلت صفاء (بألفها الممدود أو المقصورة) تلقى عبد السيد يغدو إلى عمله فى الدائرة ،

وحين يروح من عمله إلى الدار ، فيكون بينهما ما يكون بين الفتيان من هذه الأحاديث الفارغة ، التي لا تؤدى شيئاً ولا تدل على شيء ، وإنما تشغل أصحابها عن أنفسهم ، وتلهيهم عن آمالهم .

ولكن الشاب ماكر ماهر ، ينتهز الفرص ، ويختلس الوسائل اختلاساً ، فهو يشيع فى هذه الأحاديث الفارغة بين حين وحين ما يريد أن يملأها ، فيعجزه ذلك فى أول الأمر ، ولكنه لا يعرف العجز ، ولا اليأس ولا الإخفاق ، وإنما هو ملح دءوب ، يخطئه النجح هذه المرة فلا يرده ذلك عن استئناف المحاولة ، وهو يسلك إلى غايته طرقاً مختلفة ملتوية ، لا يحسن العلم بها إلا الذين محصتهم الحياة وعلمتهم التجارب . وأين الفتيان الفارون من تمحيص الحياة وتعليم التجارب ! كلمة تنطق بها صفاء ، فإذا الشباب يجرى فيها عذوبة غير مألوفة ، ويوقعها من أذن عبد السيد وقلبه موقعاً غير مألوف ؛ وحركة يأتى بها عبد السيد ، فإذا الشباب يجرى فيها رشاقة غير مألوفة ، ويوقعها من عين صفاء وقلبها موقعاً غير مألوف ؛ وإذا الفتى مشغول بهذه الكلمة العذبة ، يريد أن تتكرر وأن يضاف إليها أمثالها ، وإذا الفتاة مشغولة بهذه الحركة الرشيقة ، تريد أن تتكرر وأن يضاف إليها أمثالها . وإذا كلاهما مشغول بصاحبه حين يلقاه ، ومشغول بصاحبه حين ينأى عنه ، ومشغول بصاحبه حين يقبل الليل ، ومشغول بصاحبه حين يسفر

النهار ؛ وإذا اللقاء الذى كاد يكون بينهما على غير موعد وعلى غير نية ، قد جعل يصبح شيئاً تدبر له الخطط وتبتغى إليه الوسائل ؛ وإذا الحديث الذى كاد يكون بينهما فارغاً ليس وراءه شيء ، قد جعل يصبح مليئاً وراءه كثير من الأشياء ، وإذا الأسرتان تلحظان أن لهذين الفتيين شأناً ، فلا تنكران ولا تعرفان أول الأمر ، ثم تبتسم قلوب الشيوخ لهذه الصلة الناشئة بين هذين القلبين الشابين، ثم يتحدث المقدس ميخائيل إلى حنينة ، ويتحدث المعلم يونان إلى مرجانة ، ولا تقول إحدى الأسرتين للأخرى شيئاً ، وإنما تنتظر كلتاهما أن تكون الأخرى هى التى تبدأ الحديث . والشباب لا يحفل بما يثور فى نفوس الشيوخ من خواطر ، ولا بما يضطرب فى عقولهم من تفكير ، وإنما هو ماض لغايته لا ينظر إلى وراء ، وإنما ينظر إلى أمام ، وإلى أمام دائماً ، حتى لا يلفت الأسرتين وحدهما إلى نفسه وإلى ما أحدث من صلات ، وإنما يلفت أسراً أخرى من الجيران . وهناك يتنبه الشيوخ ؛ فتتحدث مرجانة إلى حنينة ، ويتحدث المعلم إلى المقدس ، وتصبح الخطبة شيئاً مقرراً متفقاً عليه .

ونصيف مقيم فى غربته تتقاذفه المدن فى أعلى الأرض وفى أسفلها ، وقد ثبت فى منصبه فلم يقبض أجره مياومة ، وإنما أصبح موظفاً بالمعنى الصحيح الدقيق ، وزيد مرتبه

حتى بلغ أربعة جنيهات ونصف جنيه، يحسم منها المعاش آخر الشهر، ولكن مرتبه قد زيد على كل حال، إلا أنه لم يزد وحده، وإنما زادت معه نفقات الفتى وتكاليف حياته بعد أن أصبح موظفاً مثبتاً. زاد مرتب الفتى، ولكن نصيب أبويه من هذا المرتب لم يزد وإنما ظل كما كان: يصل إليهما أحياناً كاملا، وأحياناً منقوصاً، ويتخلف عنهما بين حين وحين.

ويقبل الفتى ذات يوم فى إجازة من إجازات الموظفين ليرى أسرته، فترى المدينة منه شاباً رشيقاً أنيقاً لم تعرفه من قبل، وترى زينة ورواء لا عهد لها بهما عند أمثال هذا الفتى من شبابها بين أبناء الزراع والتجار؛ ويرتفع رأس المقدس حين يرى إعجاب الناس بابنه واحتفاءهم به، واحتشاد النسوة والصبية لرؤيته حين يمر بهذا الشارع أو ذاك، وبهذه الحارة أو تلك؛ ويمتلئ الفتى بنفسه تيهاً وإعجاباً حين يرى تهافت الناس عليه وسعيهم إليه، يحييه بعضهم من قريب، ويحييه بعضهم من بعيد، ويعجب به أولئك وهؤلاء، ويرى فيه مع ذلك أولئك وهؤلاء شيئاً من الكبرياء، فينكره بعض الناس فى قلوبهم، وينكره بعض الناس بألسنتهم. ويشفق الأب والأم على ابنهما من حسد الحاسدين، ويتمنى الأب والأم أن يقيم ابنهما فيطيل المقام ليستمتعا به وليهنئا بمحضره، ويتمنيان مع ذلك أن يعجل السفر ليأمن كيد الكائدين وحسد

الحاسدين . ويعود الفتى بعد أيام إلى عمله ، وقد رضى عن نفسه ورضى عنه أبواه ، ورضى عنه أكثر أهل المدينة وضاق به أقلهم . وكأنما ألم الفتى بهذه المدينة إلمامته القصيرة تلك ، ليودع أباه ويراه للمرة الأخيرة ؛ فما يكاد الفتى يسافر وتمضى على سفره أيام حتى يحس المقدس من الضعف ما يحس الشيوخ ، فلا يكاد يحفل بذلك ولا يلتفت إليه ؛ ولكن الضعف يزداد ويلح ، والشيخ يثقل ويضطر إلى لزوم داره ، ثم إلى لزوم فراشه ، ثم إلى فراق هذه الدنيا . ويعود الفتى مرة أخرى إلى المدينة حزيناً كئيباً ، ولكن الحزن والكآبة لم يزيداه إلا رشاقة وأناقة واستهواء لقلوب الناس ، واستجلاباً لحبهم له وعطفهم عليه ؛ فقد ذهبا بكثير من فرحه ومرحه واعتداده بنفسه واستخفافه بغيره ، ورداه إلى شيء من الدعة والاتزان واعتدال المزاج .

ومهما يكن من شيء فقد ألقى فى روع الفتى أنه أصبح بعد موت أبيه رجلا يحتمل التبعات وينهض بأعمال الأسرة . وقد واجه التبعات والأعباء مواجهة حسنة ، فشمل أمه وأخته بكثير من العطف والرعاية ، وجد واجتهد وسعى ووسط غيره فى السعى حتى استطاع أن ينقل نفسه من مدينته تلك البعيدة التى كان يعمل فيها ، إلى مدينته هذه التى تقيم فيها أسرته ؛ وإذا هو موظف فى مكتب البرق بالمدينة يقيم فى أسرته ويرعاها ،

ويقوم منها مقام أبيه .

وتمضى أمور الأسرة كما تستطيع ، أو على خير ما تستطيع ، فقد أقام الفتى فى داره وعاش مع أهله ، ودبر أمره خيراً مما كان يدبره أثناء الغربة ، فاستقامت له ولأهله حياة لم تكن تستقيم لهم من قبل . وكم تمنت حنينة — لو كان ينفع التمنى — أن يعود المقدس فيشارك فى هذه الحياة ، وينعم بها ، ويسعد برؤية ابنه غادياً على العمل أو رائحاً إلى الدار ، فى زيه ذاك الجميل ، وشكله ذاك الوسيم ، ومنظره الذى يملأ القلوب روعة ورضاً .

وتتصل أسباب الفتى بزملائه الذين يعملون معه فى مكتب البرق ، وبزملاء آخرين يعملون فى المحطة ، وبجماعات أخرى من الموظفين يعملون فى المحكمة أو فى مكتب البريد ؛ وإذا هو يرقى بأسرته حقاً إلى هذه الطبقة الممتازة التى طالما ود أبوه لو يرقى بها إليها ؛ وإذا هو ممتاز بين هؤلاء الموظفين الممتازين حين يلتقون من آخر النهار أو من أول الليل فى قهوة ذلك الرومى التى كانت تقوم على شاطئ القناة قريباً من المحطة ، والتى كان الموظفون ، ولا سيا الشباب منهم ، يسعون إليها حين يدنو الأصيل ، فيقيمون فيها فرحين لاعبين مداعبين حتى يتقدم الليل .

وفى ذات صباح يجلس الفتى إلى فطوره وأمه إلى جانبه

تنظر إليه وتعجب به ، وأخته صفاء قائمة بين يديه تخدمه ، تذهب وتجيء مقدمة هذا اللون رافعة هذا الإناء ، وإذا الفتى يحتال حتى يبعد أخته ، ويخلو إلى أمه فيلقى إليها فى همس سريع أو سرعة هامسة ، أن زميله فلاناً يخطب إليه أخته، وأنه سعيد بهذه الخطبة ،يرى فيها مزيداً من رقى وفضلا من رخاء ؛ فهذا الزميل فتى كريم من أسرة كريمة ، قد فقد أبويه ، فهو إذن سيد نفسه ، وهو يقبض فى آخر الشهر مرتباً كالذى يقبضه هو ، وهو يريد أن يكون له أخاً ؛ وإذا قبلت خطبته وتم زواجه فسيعيش فى الدار ، وسيكون لأمه ابناً ثانياً ، وسيجتمع المرتبان ، وستغرق الأسرة فى نعيم ورخاء لم تكن لترجوهما أو تفكر فيهما . وتسمع الأم هذا الحديث فيقع من قلبها موقعاً غريباً فيه كثير من الإغراء ، ولكنه يثير كثيراً من الحزن والخوف والأسى ؛ فابنتها مخطوبة أو كالمخطوبة لجارها الفتى ؛ قدذهب زوجها إلى الدار الآخرة وهو مقرٌّ لهذه الخطبة راض عنها مغتبط بها ، وفى نفس ابنتها شيء من هذا الفتى الجار ، ليس فى ذلك شك . ثم تثوب الشيخة إلى نفسها بعد أن شكت غير طويل ، وتقول لابنها فى صوت هادئ رزين : وددت لو كان ذلك يابنى ، ولكن أختك مخطوبة أو كالمخطوبة ، قد أحبها جارنا عبدالسيد ، وكأنها تحبه ، وقد تحدثنا فى خطبتهما وقبلها أبوك . ولا يكاد الفتى يسمع حديث أمه حتى تأخذه

الكبرياء ، ويعاوده الاعتداد بالنفس ، ويقول لأمه فى صوت المغضب الذى كادت تخرجه الموجدة عن طوره : « كان هذا فى تلك الأيام السود ، فأما الآن فما أحب أن أخوض ولا أن تخوضى فى هذا الحديث . » ثم يشعل سيجارته فى أنفة وينهض فى كبرياء متثاقلة ، وينصرف عن الحجرة ، ثم ينصرف عن الدار وكأنه لم يخلف فيهما أحداً .

وقد صبرت حنينة نفسها عن هذا المكروه ، فلم تتحدث فيه إلى ابنتها ،وأزمعت أن تراجع فيه ابنها ؛ وراجعته مرة ومرة ، ولكنها لم تظفر منه بشيء ولم تلق منه إلا ازوراراً وإعراضاً ، حتى أنذرها ذات يوم بأنها إن لم تذعن له فسينتقل من هذه المدينة كما انتقل إليها ، وسيستأنف حياته تلك الغريبة المشردة ، وسيتركها تعيش مع ابنتها فى ظل هذا الفتى الغافل الذى لاغناء فيه ، وسيرسل إليها ما يستطيع أن يرسل إليها من المال ليعينها على العيش كما كان يفعل فى حياة أبيه .

ولم تتعود الأمهات فى مثل هذه البيئة مقاومة أبنائهن ، وإنما تعودن الإذعان لهم والاستجابة إلى ما يريدون . والفتى يقوم مقام أبيه ، فهو سيد الأسرة وصاحب الأمر والنهى فيها ، لا ينبغى أن يلقى منها مقاومة ولا اعتراضاً ؛ فما أيسر ما تذعن حنينة لابنها ، وما أسرع ما تحاول أن تحمل صفاء على الإذعان ؛ وصفاء ليست فى حاجة إلى أن تحمل على

الإذعان ، فهى مذعنة بطبعها لما يريد أخوها ولما تحب أمها . ومتى استطاعت الفتيات أن يخالفهن عن أمر الإخوة والأمهات !

هى إذن مذعنة الإرادة ، ولكنها ثائرة القلب ؛ وقد بذلت حنينة جهداً غير قليل لتغرى ابنتها بمثل ما أغراها به ابنها من الرخاء والنعيم، وارتفاع المنزلة ، وامتياز الطبقة ، وبما سيتاح لها من زينة وترف لم تكن لتظفر بهما لو اقترنت إلى هذا الفتى المتواضع الفقير الذى لا يكسب قوته إلا بالجهد والمشقة ، وسعى أمه لتعينه على تحصيل ما تحتاج الأسرة إليه؛ وكانت صفاء تسمع لهذه الأحاديث ، فتذعن إرادتها ويثور قلبها ، وتحاول أن تظهر الرضا فلا تجد إلى إظهاره سبيلا .

ثم يخرج نبأ هذه الخطبة من دار حنينة إلى دار مرجانة ، ثم إلى غيرها من الدور ، ويصبح حديث أهل الشوارع ، ثم حديث من يعرف الأسرة من الناس ؛ فأما مرجانة فتسمع ولا تقول شيئاً ، وأما المعلم يونان فيسمع ويبتسم ولا يزيد على أن يقول : وأين يكون ابننا من هذا الفتى ، وابننا كاتب لا يكاد يكسب قوته ، وهذا الفتى موظف ممتاز ! وأما الناس فأقلهم يغبط صفاء وأكثرهم يحسدها ؛ وأما عبد السيد فيثور ويثور وينذر مرة باقتراف الجريمة ، ومرة أخرى بقتل نفسه ، ثم يرد إلى هدوء منكر من ورائه شر عظيم .

فهو يغدو ويروح بين أهله وعمله قد انطوى على نفسه ،

وانطوت نفسه على ما فيها ، فهو لا يتحدث إلى احد فى هذه الخطبة المعلنة ، وفى هذا الزواج المنتظر ، ولا يحب أن يتحدث إليه أحد فيهما، وإذا تحدث الناس إليه فى شىء من ذلك أعرض عن الحديث ولم يلق إليه بالا ، كأنه غريب عن هذه البيئة التى يعيش فيها ، لا يعنيه شىء مما يفعل الناس حوله أو يقولون .

وقد كانت مرجانة تهيىء نفسها لتفيض على ابنها شيئاً من عطف ، وفضلا من حنان تريد أن تعزيه عن محنته ، وتواسيه فى هذه الملمة التى نزلت به فبغضت إليه الحياة وألقت بينه وبين الأمل حجباً صفاقاً وأستاراً كثافاً ، ولكنها لم تر من ابنها حزناً ، ولم تسمع منه شكاة ؛ وحاولت أن تنفذ إلى ذات نفسه فلم تبلغ مما حاولت شيئاً ، وظنت آخر الأمر أنها أكبرت من هذا الأمر صغيراً ، وعظمت منه حقيراً ،وأسرفت فى حسن الظن بابنها ، فقدرت أنه كان يحب ويسعد بالحب ، وأن هذه الخطبة قد ردته من الكآبة والحزن واليأس إلى ما لا يطاق؛ ولكنها تنظر فترى ابنها ساهياً لاهياً ، لا يحفل بأحد ، ولا يحفل بشىء ، ولا يظهر عليه ما يدل أنه حزين أو يائس أو كئيب ؛ فقد كان الفتى عابثاً فى حبه إذن ، وهو الآن غافل بعد أن تقطعت الأسباب بينه وبين هذا الحب ، ينتظر أن تتاح له فرصة أخرى لعبث آخر مع

فتاة غير هذه الفتاة . وليس من شك فى أن مرجانة لم تنعم بما لاحظت من سهو ابنها ولهوه وغفلته ، وإنما آذاها ذلك فى نفسها ، وأضاف إلى حزنها القديم حزناً جديداً ، وإلى ما ألفت من خيبة الأمل فى فتاها الذى لم يكن يحسن العمل كما كان يحسنه أبوه ، ويكسب من المال كما كان يكسب أبوه ، خيبة أمل جديد فى فتاها الذى لا يحسن أن يحب ، ولا يحسن أن يأسى حين تنقطع به أسباب الحب ويحال بينه وبين من يهوى ؛ وهى ترد عطفها وحنانها ورحمتها وإشفاقها إلى نفسها البائسة الكئيبة التى كانت تريد أن تجد شيئاً من الرّوح فى إظهار ما تكنه نفوس الأمهات من العطف والحنان والرحمة والإشفاق . ولست أدرى بأى الأمرين كانت مرجانة أشد تأذياً : بخيبة أملها المجددة فى ابنها الوحيد، أم بما اضطرت إليه من كبت عواطفها ورد نفسها إلى الإجداب بعد أن كادت تخصب ، وإلى الفقر بعد أن كادت تغنى ، وإلى الموت بعد أن همت بالحياة . وليس شىء أدفع لنفوس الأمهات إلى اليأس القاتل من هذا الحرمان الذى تُرد إليه رداً وتكره عليه إكراها ؛ فما نفس الأم إذا لم تجد العطف على ابنها ، والرحمة له حين يألم أو يتعرض للألم ؟ وما نفس الأم إذا لم تجد الرضا والغبطة والإعجاب حين يأتى ابنها بما يدعو إلى الرضا والغبطة والإعجاب؟ وهذه مرجانة قد حيل بينها وبين الرضا عن ابنها والإعجاب به

منذ وقت طويل ، وهى ترى جارتها حنينة ترضى على ابنها نصيف كل الرضا وتعجب به كل الإعجاب ، ويزيد رضاها وإعجابها أن الناس من حولها يكبرون الفتى ويقدرونه ويثنون عليه ، ولا يدعونها باسمها كما كانوا يفعلون فى بعض ما مضى من الوقت ، ولا يدعونها بأم نصيف كما كانوا يفعلون بعد أن ولد ابنها ، وحين كان صبيًّا أو شابًّا يختلف إلى المدارس ، وحين كان موظفاً غائباً لا تراه العيون ولا تحقق النفوس ما يمتاز به من الرشاقة والاناقة وجمال الزى وروعة المنظر ، وإنما يدعونها أم الأفندى . يلغون الهمزة ، ويلقون فتحها على اللام فيقولون « أم لفندى » .

حيل بين مرجانة وبين الرضا عن ابنها والإعجاب به منذ تبينت أنه خامل خامد ، لا يغنى غناء أبيه ، ويحال بينها الآن وبين ما بقى لها من أن تشمل ابنها بالعطف والرحمة والحنان حين يلم به الخطب أو يلح عليه الهم أو ينزل به المكروه ؛ فابنها لا يحس خطباً ولا همًّا ولا مكروهاً ، ولا يجد حاجة إلى عطف أو رحمة أو حنان ، ولو قد شملته أمه بشىء من ذلك لما أحسه ولا ذاقه ولا التفت إليه . هى إذن شقية بخيبة الأمل ، شقية بكبت العاطفة ؛ وهى تحاول أن تتحدث إلى زوجها الشيخ فى بعض ذلك ، فلا تسمع منه إلا هذا الجواب يرده عليها فى ابتسامة حزينة ساخرة : وأين يقع ابننا الخامل الخامد البائس اليائس ، من هذا الفتى الجميل الوسيم الذى تبتسم له الحياة !

وهمت مرجانة أن تتحدث ذات يوم إلى ابنها فى بعض ذلك ، فقال لها متضاحكاً : « ما نحن وذاك ! إن المال أقوى قوة ، وأعظم بأساً ، وأوسع سلطاناً ، وأشد إغراء من الحب ؛ وما ينبغى للفقراء أن يحبوا . » وهمت أنِ تمضى فى حديثها فكفها عن ذلك بإغراقه فى ضحك طويل ، وبانتقاله إلى أحاديث الحقل والعاملين فيه ، وإلى أحاديث الدائرة وموظفيها ، حتى قال أبوه الشيخ: « دعى هذا الفتى ؛ فإنه لم يخلق لفرح ولا لحزن ، كما لم يخلق لجد ولا لعمل . » وسمع الفتى مقالة أبيه ، فازداد إغراقاً فى الضحك ، ثم انصرف عن الدار كأنه مجنون . وكان من وراء هذا الجنون مع ذلك خاطر قد طوى عليه نفسه طيًّا ، وهو أن المال أقوى من الحب . ولكن الطريق بينه وبين الحب قريبة كل القرب ، ممهدة كل التمهيد ؛ فليس بينه وبين صفاء إلا جدار واحد يفصل بينهما ؛ فإذا ارتقى إلى سقف الدار ، فليس بينه وبين صفاء جدار ولا ستار ولا حائل رقيق أو صفيق ؛ فالأسوار بينه وبين الخطبة ، والأسوار بينه وبين الزواج ، كثيفة منيعة لا سبيل إلى اقتحامها ولا إلى النفوذ منها ؛ ومتى استطاع الفقير المعدم أن ينفذ من أسوار المال والثراء ! ولكن الأسوار بينه وبين الحب لا وجود لها ، وإنما هى حيلة واسعة أولا ، وجراءة جريئة ثانياً ، وصبر للنفس على ما تكره بعد ذلك . وقد جعل هذا الخاطر يتردد فى ضمير الفتى يقظان، ويتردد فى

أحلامه نائماً ؛ والفتى يملك أمره ويضبط نفسه ويمسك لسانه ، فلا يظهر شيئاً ولا يقول شيئاً ولا يخلى بين الناس وبين ما أخفى فى ضميره من هذا السر المكتوم . ولم تكن حال صفاء خيراً من حاله ، ولكنها كانت أدنى منه إلى الصراحة ، وأسرع منه إلى الإذعان . لم تكن نفسها عسيرة ولا مقعدة ، ولم يكن لها حظ من مهارة أو مكر ، وإنما كانت ساذجة غافلة لا تحسن حقداً ولا كيداً ولا استخفاء ؛ وهى من أجل ذلك لم تنطو على نفسها ولم تستخف بما فى ضميرها ، وإنما أذعنت خاضعة الإرادة ثائرة القلب كما قلت ؛ فلما اشتد عليها الإلحاح وكثر حولها الإغراء ، وجعلت ألوان الطرف وفنون الهدايا تستبق إلى الدار ، رضيت بنصف نفسها وسخطت بنصفها الآخر ؛ فكانت تمنح الخطبة والزواج ابتساماً ظاهراً ورضاً يكاد يشرق له وجهها أحياناً ، وكانت تمنح الحب حزناً دخيلا وأملا دفيناً ، ودموعاً لعلها أن تنهل حين تخلو إلى نفسها فى ساعة من ساعات النهار أو فى ساعة من ساعات الليل ؛ وهى بعد لم تر خطبها ولم تسمع له ، وإنما رأت آثاره ، وسمعت ما كان يروى عنه من الأحاديث ؛ فكان خطبها ظلاً يرسل الطرف والهدايا والزينة ، ويتحدث الناس عنه بما يشاؤون ؛ وكان حبها شخصاً رأته من قرب ، واستمعت له وتحدثت إليه ، وتمثلته فى نفسها ، واستحضرته فى ضميرها ؛ وقد جعلت منذ حين لا تراه إلا مخالسة ، ولكنها تراه

على كل حال، وهى تستطيع إن شاءت أن تبتغى الوسائل للقائه، ولو فعلت لأتيح لها هذا اللقاء، ولو فعلت لاستأنفت التحدث إليه والاستماع له، ولمتعته من حديثها ونظراتها بما كانت تمتعه من قبل، ولاستمتعت من حديثه ونظراته بما كانت تستمتع به من قبل. خواطر تتردد فى نفس الفتاة، وهى مشبهة شبهاً قوياً أو ضعيفاً لخواطر تتردد فى نفس الفتى، وربما خطر لصفاء أن لو كان جارها ميسر الحال موفور الكسب لما استطاع أحد أن يصدها عنه أو يردها عن حبه، ولكنه خامل خامد لا يكسب ما يقيم أوده وأود أبويه؛ فما اجتماع الفقر إلى الفقر، وما اقتران البؤس إلى البؤس، وما التباس الإعدام بالإعدام! أحقٌ إذن أن الحب لم يخلق للفقراء، وأن الفقراء لم يخلقوا ليحبوا، وإنما خلقوا ليكدوا ويجدوا ويعملوا ويكسبوا القوت، فإن بلغوا من ذلك ما يريدون فهو خير لهم، وإن لم يبلغوه فإن فى الشقاء لهم سعة، وفى الموت لهم راحة وروحاً؟

وكذلك كانت نفس الفتاة تضطرب بمثل ما كانت تضطرب به نفس الفتى من الألم والحزن واليأس، وكان قلب الفتاة يجد ما كان قلب الفتى يجد من اللوعة والحسرة والأسى؛ وكان أحب شىء إليها أن تفضى إلى الفتى بذات نفسها، وأحب شىء إلى الفتى أن يفضى إليها بذات نفسه؛ ولم يكن إلى ذلك سبيل بمشهد من الناس أو على غيب منهم؛ فقد حيل بينهما وبين

اللقاء ، وليس يفصل بينهما مع ذلك إلا حائط واحد رقيق ، ولو قد صعد كلاهما إلى سقف داره مخالسة لأتيح لهما اللقاء والحديث .

والأيام تمضى على ذلك وتتبعها الليالى ، فازداد المعلم يونان اتصالا بمصطبته ولزوماً لها ، وازدادت مرجانة تطويفاً فى الأرض بقصعتها تلك التى تغطيها الأعشاب ، ومضى الفتى فى حياته الكسلة العاملة ويقظته الغافلة الذاهلة ، واتصل النشاط واشتدت الحركة فى دار صفاء ، وأحس الناس أن يوم الزواج يدنو قليلا قليلا . وقد أطل هذا اليوم واستقبلته صفاء باسمة الثغر ، عابسة النفس ، تظهر الرضا وتضمر السخط ؛ وأقبل القسس مع المساء على دار فرحة مبتهجة قد امتلأت بقوم فرحين مبتهجين . وقد أحيا القسس مراسمهم فرتلوا وكللوا وقرعوا الأجراس والنواقيس ، وعقدوا تلك العقدة التى لا يفصمها إلا الموت . وكان المعلم يونان مستلقياً على مصطبته فى الجانب الأيمن من داره ، وكانت مرجانة قد جلست منه غير بعيدة واجمة ساهمة ، تجرى على وجهها دموع صامتة ، يقول المعلم : « أين ابنك يا مرجانه ؟ » فتقول مرجانة بصوت مبتل : « لعلك كنت تريد أن يشارك فى هذا الفرح ! »

فيعود الشيخ إلى صمته ، وتمضى الشيخة فى وجومها الباكى أو بكائها الواجم . ولم تشعل فى دار مرجانة لذلك اليوم نار ، ولم تر دار مرجانة فى تلك الليلة نوراً ، وإنما كانت النار ذاكية والنور متألقاً فى دار حنينة . ويتقدم الليل حتى يبلغ نصفه ، ثم

يتقدم حتى يوشك أن يبلغ ثلثيه ، والمحتفلون فى فرحهم ومرحهم ، قد أخذوا يتشوفون و يتشوقون إلى مثل ما تعودوا أن يشهدوا فى تلك الليالى ، ولكنهم ينصرفون لم يروا شيئاً ، ولم يسمعوا شيئاً ، وقد شملهم فتور غريب بغيض . وترى أعقاب الليل المنهزم فتى ينسل من دار حنينة مستخفياً فيما بقى من ظلام ، ويسفر الصبح شاحباً كئيباً ، وتشرق الشمس بنور ربها ، ولكنها ترسل على ذلك الشعاع أشعة فاترة خائرة متهالكة ، لا تكاد تخرجه من سكونه إلى الحركة ، ولا تكاد تخرج أهله من صمتهم إلى الكلام ؛ وهؤلاء نفر من الناس قد أقبلوا يسايرون شاطئ القناة ، حتى إذا بلغوا المنحدر هبطوا إلى دار مرجانة فأدخلوا فيها جثة قد احتز القطار رأسها احتزازاً ؛ ويرتفع صوت مرجانة مولولا ، فلا يكاد يتجاوز دارها حتى يجيبه من دار حنينة صوت آخر مولول قد ارتفع بالإعوال . ويعلم الناس قبل أن ينتصف النهار أن الفتى قد نام ينتظر الموت حتى جاءه به قطار الصعيد ، وأن صفاء قد أصبحت مزوجة كالمطلقة ، ففصمت تلك العقدة التى عقدها القسس والتى لا يفصمها إلا الموت .

تقول حنينة فى نحيبها : « يا ليتنا لم نعرف المال ! » وتقول مرجانة فى نحيبها : « يا ليتنا لم نعرف الحب . » ويقول المعلم يونان فى صوته الهادئ المتقطع : « قد عرفنا الموت الذى هو أقوى قوة من المال والحب جميعاً » .

٧
خطر

لست أبغض شيئاً كما أبغض إلقاء الدروس فى الوعظ والإرشاد وتنبيه الغافلين وإيقاظ النائمين وتحذير الذين لا يغنى فيهم التحذير ولا النذير ، وأنا مع ذلك مضطر إلى هذا أشد الاضطرار ، أراه واجباً تفرضه الوطنية الصادقة ، وتفرضه الكرامة الإنسانية ، ويفرضه الحرص على ألا تتعرض مصر للأخطار العنيفة قبل إبانها ، وعلى أن يسلك هذا الوطن البائس طريقه إلى التطور فى أناة و رفق وهدوء ، لا تعصف به العواصف ، ولا يجرى عليه ما جرى على بعض الأمم من هذه الثورات التى لا تبقى على شىء .

وقد يذعر القارئ حين يقرأ هذا الكلام ؛ وكم أتمنى أن يكون ذعره صادقاً يبلغ القلب ، و يصل إلى أعماق الضمير ، ويدفع إلى العمل الذى يعصم مصر من هذه الأهوال التى تنتظرها فى طريقها إلى التطور والرقى .

موظف من موظفى الدولة ، ليس بالعامل الذى يحسب له أجره مياومة ، وإنما هو من الموظفين الدائمين — أو المثبتين — كما يقول الحكوميون . هذا الموظف فى الدرجة السابعة ، يبلغ

مرتبه اثنى عشر جنيهاً أو أقل من ذلك قليلا ، له زوجة وخمسة من الولد ، وقضت عليه ظروف الحياة أن يعول بنى أخته وهم ستة ، وأن يعول عمة له تقطعت بها أسباب الرزق ؛ فهم إذن أربعة عشر شخصاً ، يعيشون أو يراد منهم أن يعيشوا على هذا المرتب الضئيل . والعيش طعام وشراب ولباس ، والتجاء إلى دار يظلهم سقفها ، وتحميهم جدرانها من أن تأخذهم الشرطة ، كما تأخذ المتشردين . وطبيعى ألا ينهض هذا المرتب الضئيل بحاجة هذه الأسرة الضخمة ، فيكون الاقتراض ، ثم يكون العجز عن أداء الدين ، ثم يكون امتناع القادرين عن الإقراض ما داموا لا يستردون ما يقرضون ، ثم يكون الحرمان، لا أقول من طيبات الحياة ، فليس لمثل هذه الأسرة أمل فى طيبات الحياة ، وإنما أقول مما يقيم الأود ويرد ألم الجوع . ثم يكون الحرمان ، لا أقول من الثياب التى تقى حر الصيف وبرد الشتاء ، فليس لهذه الأسرة فى هذه الثياب أمل ، وإنما أقول من الثياب التى تستر ما يجب أن يُستر من الأجسام . ثم يكون الحرمان ، لا أقول من الفُرش الوثيرة ، فليس لهذه الأسرة فى الفُرش الوثيرة أمل ، وإنما أقول من الحصير الذى يحول بين أجسامها وبين الأرض ، ومن الغطاء الذى يخيل إليها أنها تحاول أن تتقى به البرد . ثم يكون الضيق بالحياة ، ثم يكون الالتجاء إلى الأغنياء بطلب المعونة ، ثم يكون إعراض

الأغنياء عن هؤلاء اللاجئين البائسين ، إما لأن قلوب الأغنياء قاسية ، وإما لأن هؤلاء اللاجئين ليسوا وحدهم طلاب العون وإنما لهم شركاء فى الالتجاء والتماس البر ، وإما لأن الأغنياء يرون أن من الحق عليهم أن يحسنوا ولكنهم يرون أن من الحق أن ينظم الإحسان حتى لا ينتشر الأمر ، وحتى لا يلجأ إليهم البائس ومتكلف البؤس ، وحتى لا يُتخذ التسول صناعة وحرفة ، وحتى لا يُتخذ البر وسيلة إلى طمع الناس فيما ليس فى أيديهم من يسر الموسرين ؛ وإما لهذه العلل كلها مجتمعة ولعلل أخرى كثيرة يمكن أن تضاف إليها وليس فى إحصائها نفع لأحد .
ولكن الشيء الذى ليس فيه شك هو أن هذا الموظف من موظفى الدولة عاجز عن أن يجد فى مرتبه الضئيل ما يرضى أيسر ما تحتاج إليه أسرته لتعيش ، فهو يستدين من جهة حتى لا يجد إلى الاستدانة سبيلا ، وهو يلتمس الإحسان من كل طريق فلا يظفر بما يلتمس من الإحسان ، فليس أمامه إلا أن يقترف الإثم ليعيش ويتيح لأسرته أن تعيش ؛ وقد يمنعه خلقه ودينه من اقتراف الإثم ، وقد تكون الحاجة إلى الغذاء والكساء أقوى من خلقه ودينه ، فيقترف الإثم ، ولكن القانون له بالمرصاد ، فهو إن فعل تعرض للعقوبة ، وتعرضت أسرته لبؤس تضاعفه الظروف أضعافاً ؛ وإذن فليصبر ، ولكن الصبر لا يطعم الجائع ، ولا يكسو العارى ، ولا يُسكت الصبى

الذى يصبح ملتمساً طعامه حين يعضه الجوع ، ولا يداوى المريض ، ولا يغنى عن الذين انتهوا إلى الدرك الأسفل من الحرمان شيئاً .

والشيء الذى ليس فيه شك ، أن هذا الموظف ليس وحيداً فى بؤسه هذا المنكر ، وفى عبثه هذا الثقيل ، وإنما له نظراء لا يحصون بالعشرات ولا بالمئات ، وإنما يحصون بالألوف وأخشى أن يحصوا بعشرات الألوف ، وليس من الممكن أن تحل مشكلات هؤلاء الناس بالاستدانة والعجز عن أداء الدين أو الالتواء بالدين ، وليس من الممكن أن تحل مشكلات هؤلاء الناس بالتصدق والإحسان ، فإن التصدق والإحسان قد يعينان على تفريج أزمة عارضة ، وعلى إطعام العيال يوماً أو أياماً ، وعلى كسوة العيال فى فصل من الفصول ، ولكنهما لن يستطيعا أن يكفلا لهؤلاء الناس حياة يأمنون فيها من البؤس والجوع .

وأنا لم أذكر إلى الآن حق هؤلاء الصبية فى أن يتعلموا ، وفى أن يستمتعوا بصحة لا تجعلهم عرضة للأدواء المهلكة والأمراض المعدية ، ولا تجعلهم مصدر خطر على من يتصل بهم من الناس .

هذه مشكلة لو كانت طارئة لظننت أن الحديث عنها قد يلفت إليها ويدعو إلى التفكير فيها والاجتهاد فى حلها ،

ولكنها لم تطرأ اليوم، ولم تطرأ أمس ، وإنما عهدها بنا بعيد ، وإهمالنا لها متصل ؛ وهى من أجل ذلك تنتج نتائجها المنكرة المخزية ؛ فانتشار الوباء فى غير مشقة ، وانتشار الفساد الخلقى، وانتشار الرشوة ، وانتشار السرقة ، وتقطيع الصلات بين الناس ، وانتشار الظلمة فى الضمائر والقلوب ، وانتشار اليأس حتى من روح الله ، وانتشار الذلة والمسكنة والهوان . وانتشار الإذعان للظلم والاستسلام للعسف والانقياد للاستبداد بالحرية والكرامة ، والازدراء لكل ما يجعل الإنسان إنساناً ، فضلا عن الازدراء لكل ما يجعل الإنسان إنساناً متحضراً ممتازاً — كل هذه الآفات والمخازى ليس لها مصدر إلا هذا الشقاء .

ولأعد إلى هذا الموظف من موظفى الدولة ؛ إنه كغيره من الموظفين : يغدو إلى مكتبه مع الصباح، ويروح إلى داره مع المساء ، قد اتخذ ثياباً تلائم عمله ، ولو بليت ثيابه فلم يجد ما يشترى به ثياباً أخرى لعوقب على ذلك ، فالدولة حريصة على أن يكون موظفوها كراماً فى مظاهرهم على أقل تقدير . هو إذن يغدو ويروح فى ثيابه تلك الملائمة ، وعلى رأسه طربوشه ، وفى رجليه حذاؤه الذى لا ينبغى أن يبلى ، وهو يستقبل أصحاب الحاجات من الشعب ، يبسم لهم أو يعبس فى وجوههم ، يخدمهم ناصحاً أو يخدمهم متكرهاً ، وهو يتحدث إلى زملائه فيبادلهم الدعابة حيناً ويبادلهم الشكوى

أحياناً ، وهو على كل حال قبر متحرك ، يحيا حياة ظاهرة ولكن قلبه ميت ، قد أماته البؤس والشقاء والهم ، وأكثر زملائه يشبهونه ؛ فأعجب لدولة يخدمها موظفون تحيا أجسامهم وتموت نفوسهم ، وانتظر بعد ذلك من هذه الدولة أن تسلك بالشعب طريقه إلى العزة والكرامة والاستقلال الناقص أو التام ؛ والمهم هو أننا عشنا حتى رأينا موظفى الدولة يطلبون الصدقة ويلتمسون الإحسان : يطلبون ذلك بألسنتهم ويطلبون ذلك بأقلامهم . جاهدوا ما وسعهم الجهاد حتى أرغمتهم الحاجة على أن يتخففوا من هذه الكرامة التى منحها الله للإنسان ، والتى تمنع الإنسان من أن يسأل ويلتمس الإحسان !

موظفو الدولة إذن يطلبون الصدقة ويلتمسون الإحسان ؛ وأغرب ما فى الأمر أن عامة الشعب يحسدون الموظفين على مرتباتهم هذه المقررة المنظمة التى تصرف لهم فى أول الشهر ، لا تتخلف عنهم ولا تبطىء عليهم ؛ وإذا كانت هذه حال المحسودين فكيف تكون حال الحاسدين ؟ أظن أنك قد رأيت الخطر الذى يسعى إلينا مسرعاً ، أو الذى نسعى إليه مسرعين ؛ وأظنك توافقنى على أننا بين اثنتين : إما أن نترك الأمور تجرى على سجيتها فيكون ما لا بد أن يكون ، ويجرى علينا ما جرى على الأمم من قبلنا ، وإما أن نستقبل من أمرنا ما استدبرنا ، وأن نحاول الإصلاح لنعصم موظفى الدولة من

طلب الصدقة والتماس الإحسان ، فنعصم الشعب كله من طلب الصدقة والتماس الإحسان ؛ وليس إلى ذلك إلا سبيل واحدة ، هي أن نعيد النظر فى نظامنا الاجتماعى كله ، فيما تجبى الدولة من الضرائب ، وفيما تمنح الدولة من المرتبات .

الضرائب قليلة جداً ، أقل مما ينبغى ، والمرتبات قليلة جداً ، أقل مما ينبغى ؛ والعدل يقتضى أن تضاعف الضرائب ، وأن تضاعف المرتبات ، وأن تكف الدولة عن الإسراف فى الأموال العامة ، وأن يكف الأغنياء عن الإسراف فى أموالهم الخاصة . وليس إلى الإصلاح الاجتماعى من سبيل إلا إذا وجدت الأداة السياسية الصالحة التى تستطيع أن تنهض بعبئه وتنقذه من مشكلاته ؛ فهل ترى أن مصر تملك فى هذه الأيام أداة سياسية صالحة تمكنها من محاولة هذا الإصلاح ؟ هذا سؤال لست فى حاجة إلى أن أجيب عليه !

٨

تضامن

لم يكن عمر بن الخطاب رحمه الله ، يقدر حين صدر بالمسلمين من الحج سنة ثمانى عشرة للهجرة ، أنه يستقبل بالمسلمين من أهل بلاد العرب ، ومن أهل الحجاز ونجد

وتهامة خاصة ، عاماً أسود قاتماً يمتحن المسلمون به فى أنفسهم وأموالهم وأخلاقهم ، وفيما أتيح لهم من الصبر على الشدائد والثبات للمكروه والنفوذ من الخطوب ، وفيما أتيح لهم كذلك من هذا الشعور الكريم الممتاز الذى يجعل الإنسان إنساناً ويرقى به إلى المنزلة العليا من منازل الكرامة ، وهو شعور التعاطف والتآلف ، والتضامن الاجتماعى الذى يلقى فى روع كل فرد مهما تكن منزلته ، أنه عضو من جماعة يسعد بسعادتها ، ويشقى بشقائها ، ويأخذ بحظه مما يصيبها من النعماء والبأساء ، وما ينوبها من السراء والضراء .

لم يكن عمر رحمه الله يقدر أن الغيب قد أضمر له وللمسلمين من أهل بلاد العرب هذه المحنة القاسية ، يمحص بها قلوبهم ، ويصفى بها نفوسهم ، ويعلمهم بها أن الحياة ليست نعيماً متصلا ، ولا رضاء مقيماً ، ولا خصباً يتجدد كلما تجددت الفصول ؛ وإنما هى مزاج من النعيم والبؤس ، ومن اللذة والألم ، ومن السعادة والشقاء ؛ وأن سبيل المؤمن الذى مس الإيمان قلبه حقاً ، هو ألا يطغى إذا استغنى ، ولا يبطر إذا نعم ، ولا ييأس إذا امتحن بالبؤس والشقاء ؛ وألا يؤثر نفسه بالخير إن أتيح له الخير من دون الناس ، وألا يترك نظراءه نهباً للنوازل حين تنزل ، وللخطوب حين تلم ، وإنما يعطى الناس مما عنده حتى يشاركوه فى نعمائه ، ويأخذ من الناس

بعض ما عندهم حتى يشاركهم فى بأسائهم ؛ فالله لم ينشر ضوء الشمس ليستمتع به فريق من الناس دون فريق ، والله لم يرسل النسيم لتتنفسه طائفة من الناس دون طائفة ، والله لم يُجر الأنهار ولم يفجر الينابيع لتشرب منها جماعات من الناس وتظمأ إليها جماعات أخرى ، والله كذلك لم يخرج النبات من الأرض ليشبع منه قوم ويجوع آخرون .

وإنما أسبغ الله نعمته ليستمتع بها الناس جميعاً ، تتفاوت حظوظهم من هذا الاستمتاع ، ولكن لا ينبغى أن يفرض الحرمان على أحد منهم ، مهما يكن شخصه ، ومهما تكن طبقته ، ومهما تكن منزلته بين مواطنيه .

لم يكن عمر رحمه الله يقدر حين صدر من الموسم فى ذلك العام أن الله سيرسل إلى المسلمين عاماً جديداً يمتحنهم فيه بالجوع والظمأ والعرى امتحاناً لم يعرفوا مثله منذ عهد بعيد أشد البعد ؛ وكيف كان عمر يستطيع أن يقدر ذلك وأمور الدولة الناشئة تجرى على خير ما كان المسلمون يحبون من العدل والسعة وبعد الصيت ، وانتشار الفتح وكثرة الفىء وغزارة الرخاء ؟ ولكن العام الجديد يقبل ، وإذا السماء تبخل بمائها حتى تحترق الأرض ظمأ إلى هذا الماء ، وحتى تسود كأنها الرماد ، وحتى يضطر المسلمون إلى أن يسموا هذا العام عام الرمادة . بخلت السماء بالماء ، وجادت الشمس بالحر ، وعجزت الأرض عن

أن تخرج للناس ما يأكلون وما يطعمون به ما كانوا يسومون من الثاغية والراغية . وينظر عمر بعد أن استقر فى المدينة . فإذا الأزمة تسعى متمهلة مستأنية ، ولكنها مستوثقة من نفسها ملحة فى سعيها ، وإذا أهل البادية قد أجدبوا واشتد عليهم الجدب فلم يفكروا إلا فى أن يهرعوا إلى خليفتهم . يلتمسون عنده ما يطعمهم من جوع ، ويسقيهم من ظمأ . ويكسوهم من عرى ؛ وما له لا يفعل ذلك وهو قد أخذ أبناءهم وآباءهم وإخوانهم وكاسبيهم وعائليهم ، فرمى بهم تلك الثغور ، ودفع بهم إلى حروب يعرفون أولها ولا يعرفون آخرها ! وما لهم لا يهرعون إليه وهم كانوا يشعرون بحبه لهم ، وعطفه عليهم ، وبره بهم ، يسعى إلى أقصاهم كما يسعى إلى أدناهم ، لا يقصر عن السعى إليهم ساعة من ليل أو ساعة من نهار . ثم ينظر عمر فإذا جزيرة العرب كلها ترسل إليه من بقى فيها من الشيوخ والنساء والأطفال والعاجزين الذين لا يقدرون على شىء ، والقادرين الذين لا يجدون شيئاً يقدرون عليه . . . هنالك ينهض عمر للقاء هذه الأزمة العنيفة الجائحة نهوض الرجل الذى يعرف الحق كما لم يعرفه أحد بعده ؛ ويحمل العبء كما لم يحمله أحد بعده . ويواجه الخطب مصمماً على أن ينفذ منه أو يموت من دونه مهما تكن الظروف ، حتى أصبح عام الرمادة ذاك كنزاً من كنوز المسلمين لا ينفد ولا يدركه الفناء : يجد المسلمون

فيه من العبرة والموعظة الحسنة والقدوة الصالحة ، ما لا يمتنع عليه قلب له حظ من رفق ولين ، إلا أن يكون من تلك القلوب التى وصفها الله عز وجل ، بأنها قست فهى كالحجارة أو أشد قسوة . وقد بدأ عمر رحمه الله بنفسه فى مقاومة هذا الخطب ، فأبى إلا أن يكون رجلا من المسلمين : يشقى كما يشقون ، ويجوع كما يجوعون ، ويظمأ كما يظمأون ، ويشتد على نفسه وعلى أهله بمقدار ما تشتد الأزمة على أشد الناس فقراً وبؤساً ؛ يفعل ذلك لأنه مؤمن قبل كل شىء بأن من الحق عليه لنفسه ولله وللناس أن يفعل ذلك ، ثم يفعله لأنه مؤمن بأن من الحق عليه أن يعلم الناس كيف يكون التضامن والتعاون والتعاطف ، حين تنزل المحن وتلم الخطوب ، فيأبى إلا أن يعيش كما يعيش أفقر الناس !

رأى المسلمين لا يجدون السمن إلا فى مشقة وجهد ، فحرم على نفسه السمن حتى تجده عامة الناس ، وفرض على نفسه الزيت والخبز الجاف ؛ فلما ثقل عليه الزيت ظن أنه إن طُبخ له فقد يكون أخف على معدته احتمالا ، فأمر أن يطبخ له بالزيت ، وأكله مطبوخاً فكان أوجع له وأعسر هضماً ، حتى تغير لونه واسود وجهه ، وكان شديد البياض ؛ ثم جعل يطعم الناس على الموائد العامة ويجلس معهم إلى هذه الموائد يأكل مما يأكلون منه . ثم أمر المنادين أن ينادوا فى

لناس : من يشاء أن يقبل على هذه الموائد فلأكل منها فليفعل ، من شاء أن يقبل على هذا الطعام فيأخذ منه حاجته وحاجة هله ليأكل معهم فليفعل ! وكان يشرف بنفسه على إعداد لطعام ، وربما علم الطباخين كيف يطبخون . ولكن الأزمة نشتد وتشتد ، وأهل البادية يهرعون إلى المدينة ، وكثير منهم لا يستطيعون أن ينتقلوا من أماكنهم ، قد هلك الزرع ، وجف الضرع ، ونفقت الماشية ، وأصبح من الحق على الخليفة أن يدرك هؤلاء الناس فى مواطنهم ، ويحمل إليهم أرزاقهم ما داموا عاجزين عن السعى إلى هذه الأرزاق ؛ هنالك يكتب عمر إلى عماله فى الأقاليم يأمرهم بأن يرسلوا إليه الأمداد . واقرأ هذا الكتاب القصير الرائع الذى كتبه عمر إلى عامله على مصر عمرو بن العاص رحمه الله ، وانظر إلى ما فى هذا الكتاب القصير الرائع من عنف عنيف ملؤه الرحمة الرحيمة ، والرفق الذى ليس بعده رفق : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله أمير المؤمنين إلى العاصى ابن العاصى . سلام عليك . أما بعد أفتراني هالكاً ومن قبلى ، وتعيش أنت ومن قبلك؟ فيا غوثاه ... يا غوثاه . . . يا غوثاه ! »

فلم يكد عمرو بن العاص رحمه الله يقرأ هذا الكتاب الذى يزجره فيه أمير المؤمنين أشد الزجر ، حتى كتب إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عمر أمير المؤمنين من

عمرو بن العاص . سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد أتاك الغوث فلبث فلبث ؛ لأبعثن إليك بعير أولها عندك وآخرها عندى . »

ثم نهض عمرو فى إرسال هذا الغوث براً وبحراً . وكتب عمر إلى عماله الآخرين فى الشام والعراق ، فكلهم صنع صنيع عامل مصر ، ثم أرسل عمر رسله إلى حدود بلاد العرب مما يلى الشام والعراق ومصر ، وأمرهم أن يتلقوا هذه المعونات ، فيميلوا بها إلى أهل البادية فى أماكنهم وأحيائهم ليطعموهم ، ويكسوهم ، ويسقوهم ، وعزم على رسله هؤلاء ألا يضعفوا ولا يلينوا ولا يفرقوا ما فى أيديهم من الطعام دون أن يتبينوا أنه صائر إلى بطون الجائعين ، لا إلى خزائن المختزنين ؛ وأشد من هذا روعة وأعظم من هذا إثارة للعبرة ، أن عمر رحمه الله كان يقول : « نطعم ما وجدنا أن نطعم ، فإن أعوزنا جعلنا مع أهل كل بيت ممن يجد ، عدتهم ممن لا يجد ، إلى أن يأتى الله بالحيا . »

ومعنى ذلك أنه رحمه الله قد فتح بيت المال على مصراعيه ، وأزمع أن يرزق الناس منه ؛ حتى إذا لم يجد فيه شيئاً كلف كل أسرة غنية أن تطعم مثل عددها من الفقراء ، يأخذهم بذلك بسلطان القانون والدين ، حتى يأتى الله بالفرج .

وما قصصت عليك هذا كله لأرفه عليك بروائع التاريخ ، أو لأطرفك بهذه النوادر البارعة من سيرة أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب ؛ فلسنا فى وقت ترفيه ولا إطراف ولا ترويح ، وإنما نحن نحيا فى أيام سود ، ليست أقل نكراً . ولعلها أن تكون أشد نكراً ، من عام الرمادة ذاك .

فقد كان المسلمون فى أيام عمر ، وفى ذلك العام ، يجدون الجوع والظمأ والعرى ؛ فأما المصريون فى هذا العام فإنهم يجدون الموت ويجدون المرض ، ويجدون بعد الموت والمرض ما كان يجد العرب فى عام الرمادة من الجوع والظمأ والعرى ؛ ومن حق المصريين الذين صب عليهم الوباء أن يدفع عنهم هذا الوباء ، وأن ترد عنهم آثاره ؛ فلا يكون منهم من يشكو الجوع والظمأ والعرى ؛ وهذا الحق واجب على الدولة ما وجدت فى خزائنها من المال ما يمكنها من ذلك ، لا ينبغى أن تفكر فى شىء حتى تفرغ من هذه المحنة ؛ فإن لم تسعفها خزائنها فمن الحق عليها أن تسلك الطريق التى أراد عمر أن يسلكها ، وأن تفرض على القادرين رعاية العاجزين حتى يأتى الله بالفرج.

يجب أن تعلم الدولة، ويجب أن يعلم الموسرون، أن التصدق بالمال خير فى أوقات الرخاء والدعة واللين ؛ فإذا اشتدت الشدة وأزمت الأزمة وألم الوباء ، فالتصدق واجب يفرضه العدل ؛ فإن لم ينهض به الأفراد من تلقاء أنفسهم ، وجب على الدولة أن تأخذهم به أخذاً . يجب على الدولة أن تعلم أن الله قد أمر أئمة المسلمين فى أوقات الرخاء والدعة أن يأخذوا من الأغنياء

ويردوا على الفقراء حتى لا يبقى بين الناس جائع او محروم ، فإذا جد الجد وألمت الكارثة ، فحرام على الموسرين أن يطعموا وأن يشربوا وأن يكتسوا حتى يطعم الجائعون ويشرب الظامئون ويكتسى العارون من المعسرين ؛ وعلى الدولة أن تقوم على هذا كله بسلطان القانون ؛ فإن لم تفعل فهى آثمة أشنع الإثم فى ذات الله ، وفى ذات الوطن ، وفى ذات المواطنين !

هذه دروس ألقاها عمر بن الخطاب على الحاكمين والمحكومين فى التضامن الاجتماعى الذى لا يقوم على الاشتراكية ولا على الشيوعية ، وإنما يقوم على قول الله عز وجل : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون . »

فهل نطمع فى أن تسمع الدولة ، وفى أن يسمع الموسرون؟ وهل نطمع فى أن تتذكر الدولة ويتذكر الموسرون ؟ وهل نطمع فى أن نعفى وتعفى الكرامة الإنسانية من طلب الصدقات فى الصحف إلى قوم يؤثرون الأموال على الوطن وعلى المواطنين ؟

إن من الحق على الدولة أن تعلّم البخلاء كيف يكون الكرم والجود بسلطان القانون ، إذ لم يصدر عن يقظة الضمائر وحياة النفوس . . .

٩

ثقل الغنى

كان عبد الرحمن بن عوف رحمه الله كثير المال عريض الثراء فى جاهليته ، وقد أسرع إلى الإسلام حين ظهرت الدعوة إليه فيمن أسرع إليه من السابقين الأولين ، لم يبطره الغنى ولم يصرف الثراء قلبه عن الخير ، ولم يخف كما خاف الأغنياء المترفون من قريش ما كان الإسلام يدعو إليه من التسوية بين الأغنياء والفقراء وبين الأقوياء والضعفاء وبين الأحرار والعبيد ، وإنما شرح الله صدره للإسلام ، فأقبل عليه مشغوفاً به مضحياً فى سبيله بما جمع من مال وما ضم من ثروة وما اكتسب من سؤدد ، مستعداً لمشاركة أصحابه فى التعرض للأذى واحتمال المكروه ، ولم يتردد كما لم يتردد غيره من أصحابه حين اشتدت المحنة وثقلت الفتنة وعظم البلاء فى أن يفر بدينه إلى حيث يأمن على رأيه وعقيدته وعبادته لربه ، تاركاً وراءه ماله الكثير وثراءه العريض ومكانه الرفيع ، وقوماً من أهله وذوى قرابته كان يحبهم أشد الحب ويعطف عليهم أرق العطف ويمنحهم صفو ما كان يفيض به قلبه من الرفق والبر والحنان ، فهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين جميعاً ،

ثم هاجر إلى المدينة حين اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم للإسلام داراً ، فانتهى إليها وهو لا يملك إلا قلبه الذكى وضميره النقى وأنفه الحمى وإيمانه الذى ملأ نفسه ثقة ويقيناً ؛ وقد آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين رجل من أغنياء الأنصار هو سعد بن الربيع الخزرجى رحمه الله ، فقال له سعد : انظر إلى مالى وخذ نصفه ، ولى زوجتان أطلق لك أيتهما أعجب إليك فتتخذها لنفسك زوجاً ! قال عبدالرحمن: بارك الله لك ، ولكن إذا أصبحت فدلُّونى على سوقكم . فلما أصبح ذهب إلى السوق فأنفق فيها وجه النهار ، ثم عاد وقد باع واشترى واكتسب ما يقيم به الأود ثم أقبل بعد حين على مجلس النبي صلى الله عليه وسلم وقد لبس الجديد واتخذ من الزينة ما كان يباح للمسلمين فى ذلك الوقت . فلما سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك أنبأه بأنه قد اتخذ لنفسه زوجاً من نساء المدينة ، وبأنه قد أمهر زوجه وزن نواة من ذهب ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يولم لأصحابه ، ففعل .

ولم تمض أعوام حتى كان عبد الرحمن بن عوف من أغنياء المدينة قد اكتسب ثروة مكان ثروة ، وكنز مالا مكان مال ، واستطاع أن يتزوج فيمهر امرأته ثلاثين ألفاً ؛ وكان يقول : لقد رأيتنى وما أرفع حجراً إلا ظننت أنى سأجد تحته ذهباً أو فضة !

كان عبد الرحمن إذن من كبار الأغنياء قبل أن تفتح مكة ، فلما تم فتح مكة ضم إلى ثرائه الجديد ثراءه التليد ، ثم استثمر هذا كله كأحسن ما يستثمر المال ، وكأحسن ما كانت قريش تستثمر المال ، حتى أصبح ذات يوم وإنه لمن أغنياء العرب كافة . ولعله أن يكون أغناهم كافة ، لا يستثنى منهم إلا عثمان بن عفان رحمه الله . وربما كان من الممكن أن يقال إن عبد الرحمن بن عوف كان أغنى من بيت مال المسلمين أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن بيت المال فى ذلك الوقت يدخر شيئاً ، ولم تكن تجبى إليه الضرائب ، ولم يكن يحمل إليه فىء ذو خطر ، وإنما كانت تصاب الغنائم اليسيرة فى الغزوات فتقسم بين الغزاة ويحفظ خمسها للمرافق العامة ولوجوه الإحسان والبر . وكانت الصدقات تؤخذ من الأغنياء فتقسم بين الفقراء ولا يصل منها إلى المدينة إلا أقلها ، فإذا وصل حبس على المصارف التى بينها الله فى القرآن الكريم ؛ فكان بيت المال فقيراً . وليس أدل على فقر بيت المال من إلحاح النبى صلى الله عليه وسلم على الأغنياء من الناس فى أن يعينوه على بعض غزواته بأموالهم : يخرجون له عن بعض فضولها أو ينزلون له عن بعض أصولها .

ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يكره شيئاً كما كان يكره اجتماع المال . ولم يكن يشفق على نفسه وعلى أصحابه من شىء

كما كان يشفق على نفسه وعلى أصحابه من اجتماع المال وتضخم الثراء ؛ فنظر ذات يوم إلى عبدالرحمن وقال له : « يا ابن عوف ، إنك من الأغنياء ، ولن تدخل الجنة إلا زحفاً ؛ فأقرض الله يطلق لك قدميك . » قال عبد الرحمن بن عوف : « وما الذى أقرض الله يا رسول الله ؟ » قال : « تبدأ بما أمسيت فيه . » قال : « أبكلِّه أجمع يا رسول الله ؟ » قال : « نعم ! » فخرج ابن عوف وهو يهم بذلك ، فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن جبريل قال : مر ابن عوف فليضف الضيف ، وليطعم المسكين ، وليعط السائل ويبدأ بمن يعول ؛ فإنه إذا فعل ذلك كان تزكية ما هو فيه .

وأحب قبل كل شيء أن يقف القارئ معى عند ما فى هذا الحديث من سذاجة رائعة أو روعة ساذجة فى لفظه وفى معناه وفى قصته كلها ، فرسول الله يشفق على عبد الرحمن من غناه الواسع وماله الكثير ، ويصور هذه الثروة ثقيلة باهظة يحملها صاحبها على كاهله فتمنعه من السعى وتعسر عليه الحركة ، حتى كأنه مقيد لا يستطيع أن يمشى إلى الجنة مع الساعين أو يعدو إليها مع العادين . وهو لا يشير عليه بأن يتخفف من هذا الثقل يلقيه عن كاهله إلقاء ، وإنما يشير عليه بأن يثمر هذا المال ولا يضيعه ، وذلك بأن يقرض الله قرضاً حسناً ، فلا يضيع عليه ماله وإنما يرد عليه يوم

القيامة أضعافاً مضاعفة . وعبد الرحمن يسأل عما ينبغي أن يقرض الله من ماله ، فيقال له : ابدأ بما أمسيت فيه ، أى قم فتصدق بكل ما اجتمع لك من مال حين استقبلت المساء ، واعلم أنك حين تفعل ذلك لا تزيد على أن تبتدئ ، وأنك ستمتحن فيما سيجتمع لك من المال فى مستقبل أيامك بمثل ما امتحنت به فيما اجتمع لك من المال فى أيامك الماضية .

وقد ثقل الامتحان على عبد الرحمن بعض الثقل ، فهو يسأل النبي : أبكل ما اجتمع لى من المال ؟ فيجيبه النبى : نعم ! وينهض عبد الرحمن مصمماً على أن يمضى أمر الله ورسوله فى هذا المال الذى يحبه والذى أنفق فى جمعه وتثميره ما أنفق من الجهد والوقت ، واحتمل فى تثميره ما احتمل من المشقة والعناء . ولا بأس عليه من أن يحب المال ، وإنما البأس كل البأس والجناح كل الجناح أن يمنعه حب المال من أن ينفقه ليبر به اليتامى والمساكين وذوى القربى وأبناء السبيل . أليس الله قد بين البر للمسلمين بأنه ليس التوجه إلى المشرق أو المغرب وإنما هو الإيمان بالله وإيتاء المال على حبه للذين يحتاجون إليه .

ينهض عبد الرحمن إذن مصمماً على أن يُمضى فى ماله أمر الله ورسوله ، ولكن النبي يرسل إليه أن الله ورسوله يرفقان به بعد أن امتحناه ومحصاه ، فيأمرانه بأن يضيف

الضيف ويطعم المسكين ويعطى السائل ويبدأ بأهله وعياله ؛ فإن فعل فقد زكى نفسه تزكية ، وطهر ماله تطهيراً .

حزم فى الامتحان حتّى تستبين العزيمة الصادقة الماضية على الإذعان مهما يكن شاقًّا ، وعلى التضحية مهما تكن عزيزة ، وعلى الجهد مهما يكن ثقيلا ؛ فإذا استبانت العزيمة الجازمة وظهرت النية الصادقة فالله ورسوله يضعان عنهم بعض ما يحتملون من الثقل .

وقد اختار الله نبيه بجواره ، وانقطع خبر السماء ، وحُرم المسلمون هذا الوحى الذى كان يصابحهم ويماسيهم ، وأصبح الناس ذات يوم وإذا رجّة عنيفة تتجاوب أصداؤها أرجاء المدينة كلها ؛ وتسأل عائشة أم المؤمنين رحمها الله عن هذه الرجة ، فيقال لها : هذه عير عبد الرحمن بن عوف قدمت . فتقول عائشة : أما أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كأنى بعبد الرحمن بن عوف على الصراط يميل به مرة ويستقيم أخرى حتّى يفلت ولم يكد ! »

ويبلغ حديث عائشة عبد الرحمن ، وكانت هذه العير خمسمائة راحلة تحمل نفائس العروض من الشام ، فإذا سمع هذا الحديث قال : هى وما تحمله صدقة ! لم يكتف ببعض ما كانت تحمل ، ولم يكتف بكل ما كانت تحمل ، ولم يكتف بها دون ما كانت تحمل ، وإنما تصدق بها وبأحمالها .

ولو قد امتدت الحياة برسول الله واتصل نزول الوحى وتنزلت أخبار السماء إلى الأرض ، لكان من الممكن أن يقبل النبى من عبد الرحمن التصدق ببعض تجارته والإبقاء على بعضها الآخر ؛ ولكن عائشة لم تزد على أن روت ما سمعت من رسول الله ، وأشفق عبد الرحمن من أن يميل به الصراط مرة ويستقيم به أخرى حتى يبلغ الجنة بعد جهد ، وحرص عبد الرحمن على أن يستقيم له الصراط فلا يكون فيه ميل ولا اضطراب حتى يبلغ الجنة فى غير تعثر ولا جهد ولا عناء .

وكان عبد الرحمن رحمه الله من أكبر المسلمين تصدقاً ، ومن أسخاهم بماله ، ومن أوصلهم للرحم ، ومن أبرهم بالناس؛ أنفق حياته كلها مستثمراً لماله متصدقاً به ، وكان تصدقه لا ينقص من ماله، وإنما يزيد فيه ويضاعفه أضعافاً، كأنما قضى الله ألا يجزيه عن صدقته فى الآخرة وحدها ، وألا يضاعف له قرضه فى الجنة وحدها ، وإنما يكفل له ثواب الدنيا والآخرة جميعاً .

هذا حديث قديم ، ولكن الأيام التى نعيش فيها تجعله جديداً كل الجدة ؛ وأنا أسوقه إلى الذين أتيح لهم من الغنى والثراء مثل ما أتيح لعبد الرحمن أو أكثر مما أتيح لعبد الرحمن ، وأحب أن يستقر فى قلوبهم أن الثراء إن ثقل على عبد الرحمن مع أنه كان من السابقين الأولين ، ومع أنه جاهد بنفسه

وماله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع أنه لم ينفق يوماً من أيامه إلا تصدق فيه بالكثير — أحب أن يستقر فى قلوبهم أن الثراء إن ثقل على عبد الرحمن مع أن النبى قد ضمن له الجنة فى نفر من السابقين الأولين ، فهو عليهم أثقل؛ لأنهم لم يسبقوا إلى الإسلام ، ولم يجاهدوا بأنفسهم وأموالهم فى سبيل الله ، ولم يضمن النبى لهم شيئاً إلا أنهم إن أحسنوا طاعة الله فى أنفسهم وأموالهم لم يُضع عليهم مما قدموا شيئاً . وإذا خاف النبى على عبد الرحمن ألا يبلغ الجنة إلا زحفاً ، وألا يعبر الصراط إلا بعد جهد ، فنحن أجدر أن نخاف على أغنيائنا ألا يبلغوا الجنة زاحفين ، وألا يعبروا الصراط جاهدين أو غير جاهدين .

فلينظر أغنياؤنا إلى ما حولهم من بؤس وشقاء ووباء وموت ، وليفكروا فى أن أموالهم عارية مردودة ، وفى أن الذين يقرضون الله قرضاً حسناً يضاعف لهم قرضهم يوم القيامة ، وفى أن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله قد بُشروا بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، ويقال لهم : هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون !

١٠

سخاء

لست أدرى أتصح هذه الأخبار كما أحب وكما أعتقد ، أم لا تصح كما يحب المتشككون وكما يعتقدون ؛ وهى سواء صحت أو لم تصح تثير فى نفسى كثيراً من الخواطر ، وتثير فى قلبى كثيراً من العواطف ، وتدفعنى إلى كثير من التفكير ، كما تدفعنى إلى كثير من الأحلام الحسان العذاب ، التى إن صدقت كانت أحسن المنى ، وإن لم تصدق كانت قد أتاحت لى أن أعيش ساعات حلوة كما يريد الشاعر القديم أن يقول .

وهذه الأخبار هى التى تتصل بكرم الكرماء ، وجود الأجواد ، وتبرم الأغنياء بما يتاح لهم من الغنى وما يساق إليهم من الثراء ؛ والحمد لله الذى لم يخلق الناس جميعاً حراصاً على المال ، بخلاء بما يملكون ، لا ينالون من الغنى حظًّا إلا ليبتغوا حظًّا أوفر مما نالوا ، ولا يحرزون من الثراء نصيباً إلا ليطلبوا أكثر مما أدركوا ؛ ثم هم على كثرة ما يملكون وكثرة ما يحصلون وكثرة ما يتراكم عندهم من الغنى ، أشبه شىء بالصخرة المصمتة ، ذات القاع البعيد أو التى ليس لها قاع ، فهى

لا تجود بشيء مما يستقر فيها من الماء مهما يكثر ووهما يركب بعضه بعضاً ، وإنما هى مصمتة من جميع جوانبها ، ليس فيها أمل لمن يطيف بها إلا أن يحطمها تحطيماً.

الحمد لله الذى لم يخلق الناس جميعاً حراصاً على هذا النحو من الحرص ، بخلاء إلى هذا الحد من البخل ؛ وإنما جعل منهم بين حين وحين من لا يكره الغنى ، ولكنه على ذلك لا يفنى فيه ولا يتهالك عليه ولا يتخذه غاية ، وإنما يتخذه وسيلة ينفع بها نفسه وينفع بها أهله ، وينفع بها ذوى قرابته وذوى مودته ، وينفع بها أكثر عدد ممكن من الناس ، حين يتاح له أن ينفع أكثر عدد ممكن من الناس .

هؤلاء الأجواد الأسخياء عزاء عن الحراص البخلاء ، يلقون فى روعك أن الإنسانية ليست شرًّا كلها ، وأن حياة الناس قد تكون صحراء مقفرة مجدبة شديدة العقم ، ولكنها على ذلك لا تخلو من الواحة التى تقوم فيها بين حين وحين ، فتتيح للمسافر الذى عنّاه السفر وأضناه الجهد ، أن يجد فيها من الظل والماء ، ومن الراحة والروح ، ما ينسيه بعض ما احتمل من المشقة ، ويعينه على احتمال ما سيلقاه من الجهد حين يستأنف السعى فى صحرائه تلك المجدبة المقفرة ؛ ولولا هؤلاء الأجواد الأسخياء لكانت الإنسانية خليقة أن نبغضها أشد البغض وأعظمه بشاعة ونكراً .

والناس يلتمسون الراحة حيث يجدونها وكما يستطيعون أن يجدوها ، وهم لذلك يلتمسون العزاء حيث يجدونه وكما يستطيعون أن يجدوه : يلتمسونه من حولهم ، فإذا لم يظفروا به أبعدوا فى السعى والتمسوه فى الأطراف النائية والأماكن المتباعدة ، فإذا أعياهم أن يظفروا به فى المعاصرين ، من قرب منهم ومن بعد ، التمسوه فيما مضى من الأيام وفيما سلف من العصور. وقد يظن القارئ أنى أتكثر أو أتزيد ، ولكنى أؤكد له أنى لست من التكثر والتزيد فى شىء ، وإنما استقبلت هذه الأحداث التى تحدث ، والنوائب التى تنوب ، وهذا البؤس الذى يأخذ كثرة المصريين من جميع أقطارهم ، ويسعى إليهم من كل وجه ، يُعدهم للموت حتى يسلم بعضهم إليه ، ثم يستأثر بمن بقى منهم فيمضى فى إعدادهم للموت ، متمهلا حيناً ومتعجلا حيناً ، وجعلت أنظر فيمن حولى من الأغنياء ، وأنظر فى موقفهم من هذا الشقاء الملم ، والبلاء المنظم ، والهول الهائل ، والعذاب الشديد ، فلم أر إلا حرصاً وبخلا ، وقسوة فى القلوب ، وغلظاً فى الأكباد ، وجفوة فى الطباع ، وكدراً فى الضمائر ، ووجدت قوماً ينفقون على كره للإنفاق ، وقوماً آخرين يترددون بين الكرم والبخل ثم يؤثرون البخل بعد طول التردد واتصال التفكير ، وقوماً آخرين لا ينفقون ولا يترددون ولا يفكرون ، وإنما يجهلون من حولهم من الناس ،

ويجهلون ما حولهم من البؤس والضنك والضيق والموت ، يضعون أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا ، ويجعلون على أبصارهم غشاوة حتى لا يروا ، ويجعلون على قلوبهم أكنّة وأقفالا حتى لا يصل إليهم ما يثير فيها شيئاً من تضامن أو تعاطف أو رحمة أو إشفاق .

أولئك وهؤلاء يُقبلون على لذاتهم ومنافعهم وآمالهم كما يتصورونها ، لا يعنيهم أن يلذوا والناس من حولهم يألمون ، ولا يسوءهم أن ينعموا والناس من حولهم يتجرعون الشقاء والبؤس والعذاب غصصاً ، فهم يرقصون على جثث المواطنين ، ويسعدون بشقائهم ، ولا يفرقون بين هذه الموسيقى البشعة المنكرة التى تأتى من شكاة الشاكين وبكاء الباكين وأنين المرضى وحشرجة المحتضرين ، وهذه الموسيقى الأخرى التى تصل إليهم من عزف العازفين ونفخ النافخين ورقص الراقصين ، ولا يجدون بأساً حين يقبلون على كؤوسهم المترعة المصفّاة ، أن يكون مزاجها من هذه الدموع الغزار التى لا ترى ولا تحس لأنها لا تنزف من أعين الناس وإنما تنزف من أعين مصر كلها . ودموع الناس قد ترى وقد تحس فيضيق بها الذين يرونها والذين يحسونها ، ولكن دموع الأوطان والشعوب والأجيال لا يراها ولا يحسها إلا الذين أتيح لهم شىء من رقة القلوب وصفاء النفوس ونقاء الضمائر وتهذيب الطباع ؛ وهؤلاء مع الأسف

قليلون بل هم أقل من القليل .

استقبلت هذا كله ونظرت فيمن حولى من الناس ، لأرى كيف يرفق بعضهم ببعض ، وكيف يعطف بعضهم على بعض ، وكيف يسرع الموسرون منهم إلى معونة المعسرين ؟ فلم أر شيئاً ذا خطر ، وإنما رأيت كرماً قليلا وكلاماً كثيراً ، واستباقاً إلى التفاخر الكاذب ، وتهالكاً مع ذلك على اللذة الباطلة والنعيم السخيف . وما أعلم أن أغنياءنا ، على كثرة ما يملكون ، وعلى كثرة ما يغل عليهم ما يملكون ، قد استطاعوا أن يجمعوا لمعونة المنكوبين بوباء الكوليرا مئة ألف من الجنيهات ، وأحسبهم ما زالوا بعيدين عن هذا المقدار أشد البعد ، وما أرى أنهم سيبلغونه أو يقربون منه . وهم قد أخذوا ينسون الوباء ، بعد أن أمنوا على أنفسهم — إن جاز للناس أن يأمنوا على أنفسهم — وبعد أن زعمت لهم وزارة الصحة أن الوباء قد أوشك أن يزول . لم يقل أحد لنفسه — ولا يرجى أن يقول أحد منهم لنفسه — إن الوباء قد اختطف من أسر كثيرة رجالا كانوا يعولونها ، واضطرها إلى إعدام لا سبيل إلى تصوره فضلا عن وصفه ، وإن من حق هذه الأسر أن تعيش أولا ، وأن تجد من عطف المواطنين عليها بعض العزاء عما ألم بها من الخطب ثانياً ، وأن تشعر بأنها أسر كريمة فى وطن كريم ثالثاً .

لم يخطر لأحد منهم — ولا يرجى أن يخطر لأحد منهم — شيء من ذلك ؛ لأنهم مشغولون عن هذه الخواطر بجمع المال إلى المال ، وضم الثراء إلى الثراء ، وباللذات التى لا يفرغون من بعضها إلا ليقبلوا على بعضها الآخر ، ولا يستريحون منها إلا ليستأنفوا العكوف عليها والإمعان فيها ؛ ثم لم يخطر لأحد منهم — وليس يرجى أن يخطر لأحد منهم — أن بؤس البائسين وإعدام المعدمين لا يجر الخزى عليهم بمقدار ما يجر الخزى على وطنهم كله ، وعلى الذين أتاحت لهم الظروف أن يكونوا عنواناً لهذا الوطن، يلقون الأجنبي حين يفد على مصر ، ويسعون إلى الأجنبي إذا لم يفد على مصر ويسمعون منه — راضين أو كارهين — حديث الوباء والمنكوبين ، فلا يستحيون لأنفسهم ، ولا يستحيون لوطنهم ، ولا يستحيون لهذا الجيل من المصريين أن يوصم فى أعين الأجنبى بالأثرة المنكرة التى تغض من صاحبها وتجعله خليقاً أن يُزدرى ويحتقر ، ولا يكرمه من يكرمه إلا بمقدار ما يتخذه وسيلة إلى تحقيق منافعه وقضاء آرابه .

أى بأس علىّ إذا رأيت هذا كله وضقت بهذا كله ، فوجدتنى بين اثنتين : إما أن أبغض الحياة والأحياء ، وأنكر الوطن والمواطنين ، وإما أن ألتمس العزاء حيث أستطيع أن ألتمسه ، وكما أستطيع أن ألتمسه ، لعل الغمرة أن تنجلى ، ولعلى

أستطيع – بعد وقت قصير أو طويل – أن أعود إلى هذا الجيل من المصريين المعاصرين ، ومن أغنيائهم خاصة ، فأقول لهم ، وأسمع منهم دون أن أجد فى نفسى هذا الألم الممض ، وهذا الاشمئزاز البغيض .

إلى التاريخ إذن وإلى أحاديث القدماء ؛ فقد ملأ المعاصرون قلوبنا يأساً ونفوسنا قنوطاً . لنهجرهم ، ولنهاجر فى الزمان إذا لم تتح لنا الهجرة فى المكان ، ولننظر فى أخبار تلك العصور القديمة ، سواء أصحت أم لم تصح ؛ فهى إن صحت كانت لنا عزاءً ، وهى إن لم تصح أتاحت لنا أن نحلم بجيل من الناس لا يكون الرجل فيه عبداً للمال ولا رقيقاً للثروة ، وإنما يكون المال فيه عبداً لمالكه ، وتكون الثروة فيه وسيلة إلى إعانة المنكوب وإغاثة الملهوف ، وإنقاذ المحروم ، ثم إلى إثارة هذه العاطفة الحلوة التى يجدها الرجل الكريم حين يحس أنه قد أعان منكوباً وأغاث ملهوفاً وأنقذ محروماً وبر صديقاً ، وتصرّف فى ماله ولم يدع ماله يتصرف فيه .

إلى التاريخ إذن لننسى العصر الذى نعيش فيه ، وإلى أحاديث القدماء لنتسلى عن سيرة المحدثين .

وتستطيع أن تصدقنى أو لا تصدقنى ، فما يعنينى من ذلك شىء ، ولكنك تستطيع أن تقرأ – على كل حال – أنى وقفت

تروى لنا عن القدماء من أصحاب الجود والسخاء ، عند هذه القصة التى تروى عن عثمان — رحمه الله — حين أجدب أهل المدينة أيام أبى بكر حتى ارتفعت الأسعار ، ولم يجد الفقراء وأوساط الناس ما يأكلون ، وأقبلت فى أثناء ذلك عير لعثمان تحمل من الشام خيراً كثيراً ؛ فأسرع التجار إليه يريدون أن يشتروا منه بضاعته لييسروا بها على الناس ، وجعل يساومهم حتى عرضوا عليه ما يعدل أربعة أضعاف أثمانها ، ولكنه أبى أن يبيع إلا إن استطاعوا أن يدفعوا إليه عشرة أمثال أثمانها ؛ فلما أظهروا العجز أنبأهم بأن الله قد وعده بعشرة أمثالها إن تصدق بها ، ثم أعلن إليهم أنه يؤثر هذه التجارة على تجارتهم ، ويؤثر ثواب الله على أموالهم ، وأن بضاعته هذه صدقة للمسلمين!

نعم! ووقفت وقفات طويلة ، طويلة جداً ، عند رجل آخر من أصحاب النبى ، هو طلحة بن عبد الله رحمه الله ، وقد دخلت عليه امرأته فرأته مغتماً حزيناً ، فلما سألته عن ذلك رفيقة به عطوفاً عليه ، أنبأها أن قد جاءه مال كثير ، فهو مهتم لا يدرى ما يصنع به ؛ فلم تزد امرأته على أن قالت له مبتسمة : اقسمه ! قال نعم ! ثم قسم هذا المال بين ذوى قرابته وذوى مودته وذوى الحاجة من المسلمين ، واستقبل بعد ذلك ليله سعيداً ، وكان هذا المال أربعمائة ألف درهم !

نعم! وأقف وقفات طويلة ، طويلة جداً ، عند طلحة نفسه

حين باع أرضاً له وأدّى إليه ثمنها سبعمائة ألف درهم ، فلما حصل المال فى داره ، فكر غير طويل ثم قال : إن رجلا يمسى وعنده هذا المال لا يدرى ما ادخر له القضاء من أمر الله لمغرور ! ثم أمر فقسم هذا المال على ذوى قرابته وذوى مودته وذوى الحاجة من المسلمين ، ولم ينم حتى أنفقه عن آخره .

والغريب أن هذا الإنفاق على كثرته وعلى اتصاله لم ينته بطلحة إلى الفقر أو إلى شىء يشبه الفقر ؛ لأن الله قد وعد الأغنياء إذا أنفقوا فى سبيل البر مخلصين لا يبتغون رياء ولا شهرة ولا نفاقاً ، أن يخلف عليهم ما أنفقوا ؛ وقد قتل يوم الجمل وتعرضت ثروته بعد موته لخطوب كثيرة ، ولكن ورثته على رغم ذلك اقتسموا فيما بينهم ثلاثين مليوناً من الدراهم !

فليت أغنياءنا يفكرون فى أنهم يستطيعون أن ينفقوا من فضول أموالهم مخلصين ، غير منافقين ولا مرائين ، دون أن يرزأهم هذا الإنفاق شيئاً ذا خطر . وليت أغنياءنا يصدقون وعد الله أو يمتحنون هذا الوعد ، ليتهم ينفقون مخلصين غير مرائين ، ليتبينوا أيخلف الله عليهم ما أنفقوا ، ولكن هيهات ! ليس إلى ذلك من سبيل ؛ لأن أغنياءنا لا يقرأون ، وهم إذا قرأوا لا يؤمنون ، وهم إذا آمنوا لا يغامرون ، وأهون عليهم أن يغامروا بالألوف فى ناد من أندية الميسر وميدان من ميادين

ليتبينوا أيصدقهم الله ما وعدهم أم لا . والشيء الذى يملأ القلوب غيظاً والنفوس كمداً ، هو أن الحكومات ترى من حرص الأغنياء ، وبخلهم ومن تقصيرهم ما ترى ، ثم لا تبيح لنفسها من فرض الضرائب ما يتيح لها أن تعين المنكوب ، وتغيث الملهوف ، وتنقذ المحروب ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له .

صدقنى أن الخير كل الخير للرجل الحازم الأديب ، أن يفر بقلبه وعقله وضميره من هذا الجيل . فإن أعجزه الفرار إلى بلاد أخرى ، فلا أقل من أن يفر إلى زمان آخر من أزمنة التاريخ .

١١
مصر المريضة

لم أكد أصعد إلى السفينة وأستقر فيها ، وأفرغ من هذه المواسم البغيضة التى لا بد منها لكل مبحر مهما يكن الثغر الذى يبحر منه ، حتى علمت بأن مصر مريضة ؛ فاستمعت للنبأ غير حافل به ولا آبه له ولا ملق إليه بالا . فالنبأ منشور فى إحدى الصحف الفرنسية التى لا تصدر فى مارسيليا ؛ وما أكثر ما ينشر عن مصر من هذه الأنباء التى لا تصور حقاً ولا تدل على شيء إلا ما يكون فى نفس الذين أبرقوا

بها من بغض لمصر أو ميل إلى الكيد لها والنعى عليها والإسراف فيما يذاع عنها من أنباء السوء !

والصحف الفرنسية فى هذه الأشهر الأخيرة قليلة العطف على مصر ، شديدة الضيق بها ، سريعة إلى التحدث عنها بما لا يحب المصريون ، تنتهز لذلك الفرص إن سنحت ، وتخلقها إذا لم تسنح ؛ وقد كان بيننا وبين فرنسا تلك الخطوب التى أحفظتنا على الفرنسيين وأغرتنا بهم ، وأحفظت علينا الفرنسيين وأغرتهم بنا ؛ فالقارئ المستبصر خليق أن يصطنع كثيراً من الحرص والأناة حين يقرأ أنباء مصر فى فرنسا ، وحين يقرأ أنباء فرنسا فى مصر ؛ ولست أخفى على القارئ أنى لم أكد أسمع ما نشر فى تلك الصحيفة من أن مصر مريضة ، ومن أن مرضها شيء يشبه أن يكون وباء الكوليرا ، ومن أن الحكومة المصرية قد أخذت تتأهب لمقاومة الوباء ، حتى رفعت كتفى وهززت رأسى وابتسمت ابتسامة ساخرة من هؤلاء الصحفيين الذين يريدون أن يكيدوا فلا يحسنون الكيد ، وأن يكذبوا فلا يحسنون تخير الأكاذيب .

ومضى يوم ويوم والسفينة تجرى إلى غايتها ، يعنف بها البحر حيناً ويرفق بها حيناً آخر ، دون أن يتحدث أحد إلى أحد بهذا النبأ السخيف الذى نشرته صحيفة سخيفة ، ومر بها

ألصق فى ذيره موضع من السفينة ، ينبـه فيه المسافرون إلى أن الماء العذب سيحجز عنهم ساعات من النهار ، لتستطيع السفينة أن تبلغ بيروت دون أن تأخذ شيئاً من ماء مصر ، لأن وباء الكوليرا يمنعها من ذلك .

هنالك لم نرفع الأكتاف ولم نهز الرؤوس ، ولم نبتسم ابتسامات ساخرة ولا جادة ، وإنما نظر بعض المسافرين إلى بعض فى صمت ، ثم أقبل بعض المسافرين على بعض يتساءلون . أما أنا فأعترف بأنى لم أرفع كتفى ولم أهز رأسى ، وإنما أطرقت إلى الأرض ، وجعلت أتضاءل وأتضاءل ، ووددت لو نظر إلىّ من حولى من الناس فلم يرونى ، ووددت لو تحدث إلىّ من حولى من الناس فلم يسمعوا منى لحديثهم رجع جواب . فلم يكن الشعور الذى وجدته فى ذلك الوقت شعور الخوف ، ولا الشعور بالحاجة إلى الاحتياط ، وإنما كان شعوراً غريباً أستطيع الآن أن أقول إنه كان مزاجاً من الحزن والخزى جميعاً .

كان فيه الحزن على هذا البلد الذى كنا نراه خليقاً بالسعادة ، والذى أفنينا شبابنا وكهولتنا وجهودنا وقوانا لنرقى به إلى بعض هذه السعادة التى كنا نراه لها أهلا ، ثم ها نحن أولاء نرى الشقاء يصب عليه صبّاً ، والبلاء يأخذه من جميع

البؤس البائس يغمر الكثرة الكثيرة من أهله ، فيلابسهم ملابسة متصله لا تقلع عنهم فى ليل ولا نهار ، فهم جائعون عراة جهال، أشقياء بهذا كله؛ ويزيدهم شقاء أن كثيراً منهم يعرفون هذا البؤس الذى هم فيه ، ويعرفون أن من حقهم أن ينعموا ، ويريدون أن يخلصوا من بؤسهم، وأن يحققوا لأنفسهم شيئاً من نعيم ، ولكنهم لا يبلغون ما يريدون ، ولا يعرون كيف يبلغون، ما يريدون ،ولا يجدون من يعينهم على أن يبلغوا ما يريدون .

وفيه الحزن على هذا البلد الذى كنا نراه أهلا للحرية والأمن ، والذى أفنينا شبابنا وكهولتنا وجهودنا وقوانا لنظفر له ببعض حقه من الحرية والأمن ، ثم ها نحن أولاء ننظر فنراه مغلولا لا يقدر على أن يتحرك ، معقود اللسان لا يقدر على أن ينطق ، مقفل القلب لا يقدر على أن يجد ما تجد الشعوب الحرة من الشعور بأيسر كرامة الإنسان ؛ ثم ننظر إليه فنجده من أجل ذلك خائفاً يترقب ، يخشى أن يعمل فيغضب سادته ، ويخشى أن يقول فيحفظ قادته ، ويخشى أن يسكت فيسوء به ظن المسيطرين على أمره،فهو حائر بين الحركة والسكون، وبين الكلام والصمت، وبين الشعور والجمود .

وفيه الحزن بعد ذلك على هذا البلد الذى كنا نراه أهلا للاستقلال ، والذى أفنينا شبابنا وكهولتنا وجهودنا وقوانا لنظفر له بحقه فى هذا الاستقلال ، ثم نحن ننظر فإذا هو يرد

عن حقه أعنف الرد وأقساه ، وإذا المتصرون الذين كانوا يترضّونه ويتملقونه فى أمس القريب ، قد ائتمروا به وتنكروا له وكادوه كيداً ، إن صور شيئاً فإنما يصور الجور والغدر والظلم والجحود .

وفيه الحزن بعد هذا وذاك لهذا البلد الذى صُرفت عنه ضروب الخير فى السياسة والثقافة والاقتصاد ، ومنحه الله مع ذلك إقليماً معتدلا وأرضاً خصبة وسماء صافية ونهراً يفيض بالنعمة والنعيم ، وكان هذا كله خليقاً أن يكفل لأهله حياة مادية محتملة ، ويصرف عن أهله الآفات والعلل والأدواء ؛ ولكنا ننظر فإذا هو قد حُرم حتى هذه الحياة ، وإذا الآفات والعلل والأوبئة تسعى إليه من أقصى الشرق ومن أقصى الجنوب ، فلا تجد من يردها عنه أو يحميه من شرها ، وإذا الآفات والعلل والأوبئة تهبط عليه من سمائه الصافية ، وتخرج له من أرضه الخصبة ، وتسعى إليه مع نهره الفياض ؛ وإذا أهله مرتع الآفات والعلل والأوبئة ، تصيب منه ما تشاء كما تشاء ، ومتى تشاء ، وحيث تشاء ! وإذا العالم كله يتلقى الأنباء فى أقل من شهر بأن هذا البلد الذى خلق للعزة ما زال مستذلا ، وبأن هذا البلد الذى خلق للأمن ما زال خائفاً ، وبأن هذا البلد الذى خلق للحرية ما زال مستعبداً ، ثم بأن هذا البلد الذى خلق للصحة مريض يفتك وباء الكوليرا بمدنه وقراه ويمن فى مدنه وقراه كما يشاء ، ومتى يشاء ، وحيث يشاء !

ثم فى هذا الشعور الذى أطرقتُ له إلى الأرض وتضاءلت له وتضاءلت ، شىء عظيم كئيب من الخزى لهذا البلد الذى كنا نظنه قد تجاوز هذا الطور ، طور البلاد المتأخرة العتيقة الجاهلة التى تفتك بأهلها الأوبئة ، فإذا نحن نراه عرضة للوباء ، بل مرتعاً للوباء ؛ وأى وباء ؟ وباء الكوليرا الذى كنا نظن أنه لن يعود إلى مصر بعد أن فعل بها وبأهلها الأفاعيل فى أول هذا القرن .

ليت شعرى ماذا صنعت مصر ؟ وماذا صنع المصريون ؟ يقال إنهم قد أنشأوا فى هذا القرن كثيراً من المدارس ومعاهد العلم ، ومضوا فى الحضارة الحديثة إلى أبعد حد ممكن ، فلهم برلمان كما أن لغيرهم من الأمم برلمانات ، ولهم وزارات منظمة كما أن لغيرهم من الأمم المتحضرة وزارات منظمة ، ولهم وزارة قد خصصت لشؤون الصحة ، كما أن لغيرهم وزارة مخصصة لشؤون الصحة ، ولهم عاصمة تتفوق على كثير من عواصم البلاد المتحضرة وتقاس إلى عواصم الدول الكبرى ، يعجب بها أهل باريس وأهل لوندرة وأهل نيويورك إذا ألموا بها وأقاموا فيها ؛ وهم بعد هذا كله قد نالوا من الترف ما صُرف عن كثير من الأمم المتحضرة فى هذه الأيام ، حتى أصبح ثراؤهم وترفهم وإقبالهم على اللذات مضرب الأمثال فى أقطار الأرض كلها . . . كل هذا حق ، وكل هذا شىء نسمعه

حين نزور باريس وغير باريس من المدن الكبرى فى أوربا
وفى أمريكا . كل هذا حق ، ولكن من الحق أيضاً أن العالم
كله قد تلقى منذ شهر نبأ مقتضباً ولكنه على ذلك خطير
أشد الخطورة ، تلقى النبأ بأن مصر التى أراد إسماعيل
أن يراها جزءاً من أوربا قد ألم بها وباء الكوليرا وأقام فيها ،
وأنها تريد أن ترده فلا تستطيع له رداً ، وأنها تستعين بالعالم
المتحضر على وقاية أبنائها من شره وحمايتهم من فتكه البغيض .

وكنت أظن أن هذا الشعور بالخزى مظهر من مظاهر
الغرور والكبرياء والاعتداد بالنفس والوطن ، ولكنى لم أكد
أبلغ مصر حتى عرفت أنى لست مستأثراً من دون المصريين
المثقفين بهذا النوع من الغرور والكبرياء والاعتداد بالنفس
والوطن ؛ فكل مصرى مثقف يقدر نفسه ويقدر وطنه ،
ويستحضر ما بذل المصريون من الجهود فى العصر الحديث
ليرقوا بوطنهم إلى حيث ينبغى أن يكون من العزة والأمن
والحرية والصحة فى الأبدان والقلوب والعقول ؛ كل مصرى
مثقف يجد هذا الشعور المر الذى وجدته ، والذى هو مزاج
يأتلف من الحزن الممض والخزى الذى تُطأطأ له الرؤوس .

وينظر إلىّ من كان حولى من المسافرين ، وفيهم المصرى
والأجنبى ، فيروعهم ما يرون من هذا الوجوم الذى أغرق فيه
إغراقاً غريباً ، فيظنون بى فى أعماق أنفسهم الظنون ، ويسألنى

بعضهم محاولا أن يهون علىّ الخطب وأن يردنى إلى شيء من الأمن : ماذا أجد ! فلا أزيد على أن أذكره بأنى أعرف وباء الكوليرا ، وبأنى قد تحدثت عنه فى بعض ما قرأ لى من كتب ، وبأنى قد رأيت هذا الوباء ولما أتجاوز العاشرة ، فكان له فى قلبى وحياتى كلها أبلغ الأثر وأعمقه وأبغضه . وتأثر الأطفال حين يكون عميقاً بغيضاً إلى هذا الحد لا يفارقهم مهما تمتد لهم أسباب الحياة .

أصدّقونى أم لم يصدقونى؟ لا أدرى ! ولكنى أنا لم أصدق نفسى ، فلم يكن بين هذا الوجوم الذى أغرقت فيه وبين ذكريات الصبا على مرارتها وعلى ماتثير فى النفس من الحسرات ، صلة قريبة أو بعيدة فى ذلك الوقت ، وإنما نشأ هذا الوجوم عن هذا الشعور الحزين المستخذى الذى يجده المصرى المثقف حين يرى آماله وأعماله وجهوده ، وآمال كثير من نظرائه وأعمالهم وجهودهم ، تنهار كأنهم لم ينعموا بهذه الآمال ، وكأنهم لم يسعدوا بما حاولوا من الأعمال ، وكأنهم لم يستمتعوا بما بذلوا من الجهود ، وكأنهم لم يتحدثوا إلى أنفسهم ولم يتحدث بعضهم إلى بعض بأن آمالهم التى كانت بعيدة قد أخذت تقرب وتقرب حتى توشك أن تتحقق ، وبأن أعمالهم الشاقة قد أخذت تؤتى ثمراتها ، وبأن جهودهم العنيفة قد أخذت تدنيهم من غاياتهم ، وبأنهم سيستطيعون بعد حين أن يقفوا بعد طول السعى ،

وأن ينظروا فإذا هم لم ينفقوا حياتهم عبثاً ، ولم يبذلوا جهودهم في غير طائل ، وإنما تلقوا من آبائهم وطناً ضعيفاً مهيضاً عليلا ، فما زالوا به حتى ردوا إليه شيئاً من قوة وصحة وعافية ونشاط ، ومضوا به في طريق العزة والكرامة أشواطاً وأشواطاً ، وهم يستطيعون أن يسلموه إلى أبنائهم مطمئنين إلى أنهم قد نهضوا بالحق فأحسنوا النهوض ، وأدوا الواجب فأحسنوا الأداء .

كان هذا الشعور بخيبة الأمل وضيعة العمل مصدر هذا الوجوم الذي أغرقت فيه ، ولكني لم أكن أستطيع أن أتحدث بشيء من ذلك إلى من كان حولي من الناس ؛ فهم كانوا مشغولين بأنفسهم عن المثقفين المصريين وعن آمالهم وأعمالهم وجهودهم ، وعن هذه الفلسفة اليائسة التي تغمر قلوبهم في هذه الأيام السود ؛ وهم كانوا يتحدثون فيما بينهم بما ينبغي أن يتخذوا من ضروب التحفظ وألوان الاحتياط ، وهم على كل حال قد عرفوا أني لا أحب أن أسمع لحديث الكوليرا ولا أن أشارك فيه ، فأعفوني من هذا الحديث ، ولكن الأنباء لم تعفني منه ؛ فقد كانت نشرة السفينة تعلن إلينا كل يوم عدد الإصابات وعدد الوفيات وأماكن هذه وتلك ؛ ولم نشرف على الإسكندرية حتى لم يكن لأهل السفينة كلهم حديث إلا هذا الوباء؛ وكنت أظن أني سأجد إذا بلغت مصر وجوماً شائعاً وحزناً منتشراً واستخذاءً شاملا ، كما كنت أجد في نفسي من الوجوم والحزن والاستخذاء،ولكني أبلغ الإسكندرية

وألقى من شاء الله أن ألقى من المصريين ، فإذا حياتهم تجرى على الوتيرة التى ألفناها ، وإذا الوباء يروعهم ولكنه لا يصرفهم عن أنفسهم ولا عن لذاتهم ، وإذا أنباء السياسة تحزنهم ، ولكنها لا تلهيهم عن أنفسهم ولا عن لذاتهم ، وإذا أنباء الاقتصاد تخيفهم ، ولكنها لا تشغلهم عن أنفسهم ولا عن لذاتهم ؛ وأبلغ القاهرة فأرى فيها مثل ما رأيت فى الإسكندرية ، وإنما الذين تشغلهم أنباء الوباء والسياسة والاقتصاد عن أنفسهم وعن لذاتهم قلة ضئيلة ليس أيسر من إحصائها ؛ فأما من عدا هذه القلة فماضون فى حياتهم كما تعودوا أن يمضوا : ألسنة طوال وعقول قصار وقلوب قاسية كالحجارة بل أشد قسوة ، فلا أملك نفسى أن أتلو قول الله عزّ وجل : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » ، ولا أملك نفسى أن أتلو قول الله عز وجل : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . »

ويقبل العيد فإذا المترفون مقبلون على عيدهم كما أقبل عليهم عيدهم ، لا يشعرون بأن مئات من الأسر فى مئات من المدن والقرى قد كانت تنتظر العيد كما كانوا ينتظرونه ، وتتشوق إليه أكثر مما كانوا يتشوقون إليه ، ولكن العيد أخلفهم موعده ، وأرسل إليهم الموت نائباً عنه ، وأرسل إليهم مع الموت حسرات وعبرات وزفرات ، وأرسل إليهم مع هذا كله شقاء ملحاً

وبؤساً مقيماً . نعم ! ولا يشعرون بأن أمهم مصر مريضة ، وبأن مرضها هو النزيف المهلك ، ولكنها لا تنزف دماً وإنما تنزف أبناءها وبناتها نزفاً . لا يشعرون بشيء من ذلك ، أو يشعرون به ولا يلتفتون إليه ، أو يشعرون به ويلتفون إليه ولكنهم لا يحفلون إلا بأنفسهم ولا يشفقون إلا عليها ، كأنهم يستطيعون أن يعيشوا وينعموا ويستمتعوا بالحياة إذا ضرب الحزن والبؤس والموت أطنابها على هذا البلد البائس الشقى . .

هيهات ! هيهات ! إنما ذلك تعليل النفس بالأمانى الباطلة ، وخداعها بالآمال الكاذبة ، وإن المصريين بين اثنتين لا ثالثة لهما : فإما أن يمضوا فى حياتهم كما ألفوها ، لا يحفلون إلا بأنفسهم ولذاتهم ومنافعهم ، وإذن فليثقوا بأنها الكارثة الساحقة الماحقة التى لا تبقى ولا تذر ؛ وإما أن يستأنفوا حياة جديدة كتلك التى عرفوها فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، قوامها التضامن والتعاون وإلغاء المسافات والآماد بين الأقوياء والضعفاء ، وبين الأغنياء والفقراء ، وبين الأصحاء والمرضى ؛ وإذن فهو التآزر على الخطب حتى يزول ، وعلى الكارثة حتى تنمحى ، وعلى الغمرات حتى ينجلين .

إلى أى الطريقين يريد المترفون من المصريين أن يذهبوا : إلى طريق الموت أم إلى طريق الحياة ؟ سؤال ألقيه على نفسى حين أصبح ، وألقيه على نفسى حين أمسى ، وأضرع إلى الله بين ذلك أن يجنبنى اليأس ، ويعصمنى من القنوط ؛ فـ « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . »








